

لهيب الصحراء

حرب تشاد

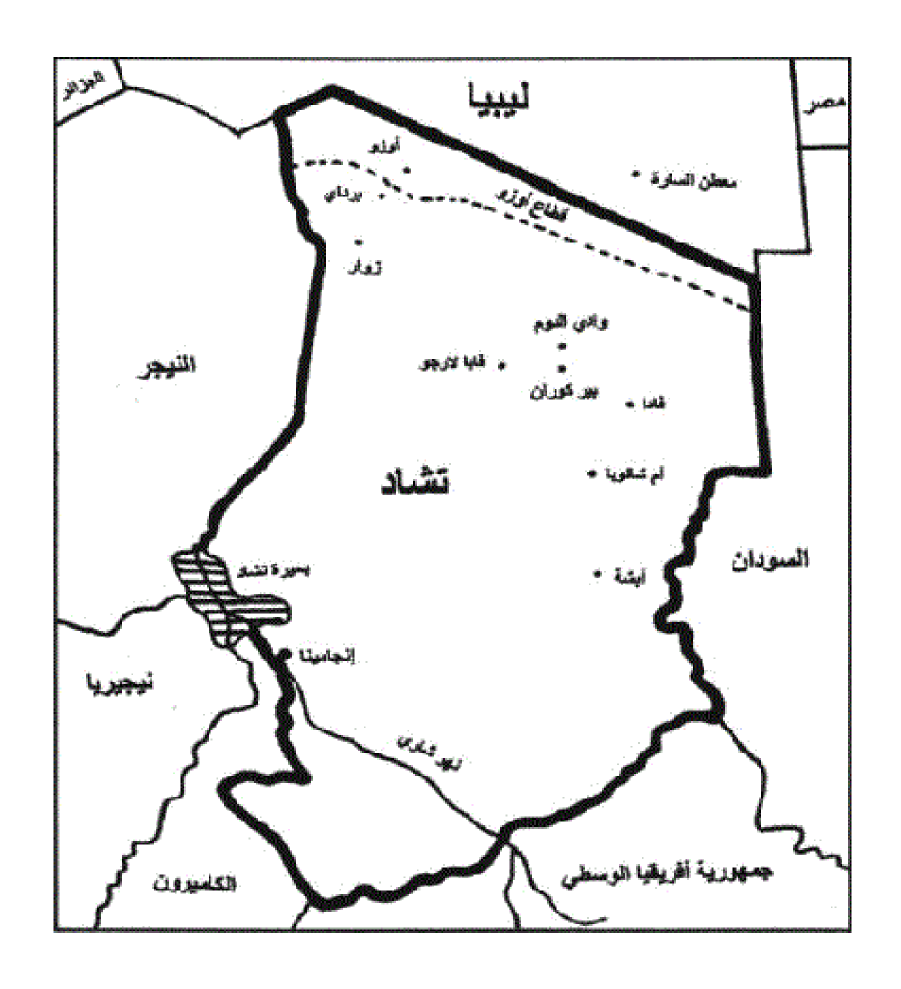
مذكرات شهود عيان

د. سالم الهمالي
د. عبدالقادر الفيتوري



لهيب الصحراء

حرب تشاد .. مذكرات شاهد عيان



د . سالم الهمالي

د . عبدالقادر الفيتوري

اهداء

الى ارواح ضحايا حرب تشاد

لهيب الصحراء

" حكاوي بنينه " .. زواريب حرب تشاد .. لهيب الصحراء .. عناوين تلتقي عندها مذكرات شاهد عيان .. عاصر اتون حرب تشاد الدامية بين الشعبين الشقيقين في ليبيا وتشاد .. حرب اوغلت في الدماء .. انهكت الحرث والنسل .. التهمت الارواح البريئة .. باسم الوطن والامر العسكري الواجب التنفيد .. سيق الالاف من ابناء الوطن الى تلك المحرقة .. منهم من لقي حتفه .. واخرون عادوا مشوهين .. وغيرهم تاه في ارض الشتات .. ومن التهمتهم فيافي الصحراء .

الدكتور سالم الهمالي .. طبيب جراح .. ابن الجنوب الليبي .. واحة تمنهنت .. قادته الظروف اوان اشتعال فتيل تلك الحرب ضمن الفرق الطبية المكلفة بالذهاب الى الخطوط الامامية .. مسعفا .. يعود بعد مضي اكثر من ربع قرن على تلك المأساة ، ليساهم ، ويدلو بدلوه في توثيق الحدث وإثراء الذاكرة المنسية .. يكتب حلقات .. وينقل مشاهد عاصرها بأسلوب سردي رائع .

عبر حلقات اشبه بالمسامرة عرض الراوي سيرة من زمن العتمة .. زمن الحرب الدامية بين ليبيا وتشاد .. يستدعي الذاكرة .. لإثراء ذاكرة وطن كليم

اضناه ارق السنين .. تألم كثيرا ، ولا زال الجرح النازف ينزف .. كم من الامهات المكلومات لا تزال تعيش على امل عودة ابنها المفقود .. وكم من الامهات التي فجعت بفقد ابنها ولا زال طيفه يطاردها ليل نهار .

حرب تشاد صفحة من صفحات التاريخ المنسي لحقبة لم يتناولها الباحثين من قبل إلا لماما ، ولم تبرز كتابات لمعاصري الاحداث سوى مؤخرا ، ما بعد انتفاضة فبراير 2011 م . لعل ابرزها كتاب " من المدرسة الى المعركة " للطالب عبدالله صالح من بلدة القطرون بالجنوب الليبي ، وكتاب " خفايا حرب تشاد " للعقيد على ابوقصة من واحة قيرة بوادي الشاطئ بالجنوب الليبي . وما كتبه الدكتور فتحي الفاضلي الذي بدل جهدا في استقاء الاحداث وتدوين اللحظة والإحصائيات من وراء اسوار الوطن . اوآن اشتعال فتيل الحرب . مستثمرا وجوده بعيدا عن يد الجلاد .

مذكرات شاهد عيان .. نسجت بمشاعر الاسى والحزن العميق ، لفقد الرفاق ، ابناء الوطن ، في قاعدة السارة ، وادي الدوم ، وقطاع اوزو ، زمن الانكسارات والهزائم المتوالية . سردية القت الضوء على جانب مظلم ، وفتحت افاق ارحب لتفكيك اسرار وغوامض تلك الفاجعة الرهيبة المؤلمة التي ذهب ضحيتها الالاف من ابناء شعبنا ، بقدر ما هدرت المليارات من خزينة الشعب

الليبي . واذكت براثن الحقد والكراهية بين الشعبين الشقيقين .. الشعب الليبي ، والشعب التشادي .. الذين ربطتهما اواصر الصداقة والمحبة والتاريخ المشترك ، عبر تاريخ طويل . وهي بما حملت من اسف وحسرة ، وألم ودموع ، ستبقى للتاريخ ، مدادا لجسر الهوة التي خلفتها رعونة المستبد .

" حكاوي بنينه " هو العنوان الذي اختاره الكاتب لسرديته ، و " بنينه " هو ذاك الجندي الصادق الصدوق ، الذي رافقه طوال رحلته ، ومنذ اللحظة الاولى عندما اقلعت بهم سويا طائرة " لينتينوف " الروسية متجهة نحو قاعدة السارة في عمق صحراء الجنوب الشرقي لليبيا . وكان دائما قريبا منه ، اثناء قيامه بمهام اسعاف الجرحى ، وعلاج المرضى . يمازحه احيانا ، ويشاركه همومه واشجانه احايين اخرى .

" بنينه " هو التمرجي الماهر خريج مدرسة الحياة . لم يسبق له ان درس اسرار المهنة بالمدارس والجامعات ، وكان خير رفيق عندما استوحش الطريق .

استغراق في المحلية ، ورهان الكاتب في احايين عدة على اللغة العامية الدارجة ، فاشية الاستعمال ، اللغة المحكية ، مع الحفاظ على اللغة الفصحى اس البناء القصصي ، ما اتاح له التسلل الى قلوب الخاصة والعامة ، ودونما كسر لتقنيات الخطاب الادبي . بصمة اخرى تعزز تجربة ثرية ومليئة بالمواقف

المربكة ، والمفاجآت الصعبة . هنا جثة هامدة لرفيق الدرب ، كان يسامره ليلة الامس ، وجريح ينزف بشدة ، وإذ لا مناص ، الادوية والمعدات محدودة ، جلبة واهتياج لوقع هجوم مسلح ومباغت ، ترقب وانتظار وسط صحراء جرداء تبعث على الاكتئاب ، وحشة المكان ، والفكر في الاهل والوطن . وأجيال امتزجت احزانها بسافي الرمال ، وكفاح في مواطن الموت ، يا له من تاريخ طمرت اوداجه نجود حجرية ، ومرتفعات صلدة ، وبراح مقفر .. تعود لتحكي قصة الصحراء وقد كسبت المعركة .

يختتم الحلقة الأخيرة من سرديته على صفحته بموقع الفيس بوك .. يعزي نفسه .. والرفاق .. وكل الذين تفاعلوا مع الحلقات اوآن توالي عرضها خلال اكثر من شهر ونصف .. يقول : (هذا العمل هو " الحقيقة " كتبت على طريقة السرد القصصي ، قصد " الوفاء" . لكل اولائك الابطال الذين طوتهم الرمال والنسيان ، و " عبرة " للأجيال القادمة) .

تزاحمت تعقيبات الاصدقاء والمعلقين ما يتعذر حصرها ، من يقترح اعادة تصفيفها وتنقيحها واصدارها في كتاب ، ومن يختار اسما للكتاب " لهيب الصحراء " ، " يوميات في السارة " .. الدكتور خليفة الاسود ينوب بكلمة شكر عن جميع المتابعين .. (باسم جميع من تابعوا يوميات طبيب في السارة "

حكاوي بنينه " ، والتي كانت إضاءة ساطعة على جزء من تاريخنا المطوي الذي اريد له ان يوارى عن الجموع " صاحبة السلطة والثروة والسلاح " . لكن ارادة الله ابت غير ذلك .. نشكر د . سالم الهمالي على سرده الجذاب والممتع والصادق والأمين .. انطلاقه ثقافية تنويرية على طريق المكاشفة والمصارحة لإخفاقاتنا كمجتمع رضي بالسكوت ولا زال يدفع ثمن سكوته الى اليوم ، من ماله وثروته ودمه .. ما نحتاجه اليوم ثورة ثقافية حقيقية لنشر الوعي كي لا نقع فريسة سائغة لكل مغامر ومستهتر بحياة ومصير الشعوب .. وان نغفر لموتانا " ليبين وتشادين " .. واختم بالقول : لقد تم نصح المقبور ذات يوم ، في مرحلة مبكرة من حربه الغادرة على الجيران ، بأنهم لا يستحقون كل هذا الدمار ، كان بإمكانه كسب ودهم وولائهم ، بفتح التجارة معهم ، وبناء المدارس والمعاهد بقراهم المعدمة .. يومها قال .. " اني مانيش خايف من كمشة عبيد ومستعد انخش انجامينا بالسلاح الابيض " !!! .. خيب الله ظنه ، وهزمه العبيد ، وانتصروا بما لديهم من اسلحة خفيفة على جيش جرار مسلح ومدجج بجميع انواع الاسلحة .. الطائرات المقاتلة التي غنمها التشاديون في وادي الدوم... وكان اعظم درس ، عاقبة الظلم وخيمة ، وثمن السكوت على الظلم اشد وطأة) .

" حكاوي بنينة " .. ومضة وخطوة نحو إماطة اللثام عن صفحات مطوية من تاريخنا المعاصر .. وفي هذا الكتاب محاولة لصقلها بصورة تسمح للقارئ الغير معتاد اللهجة العامية الليبية الاطلاع على خفايا تلك الصفحة المؤلمة الدامية .

د . عبدالقادر الفيتوري

- 1 -

في يوم شديد الحر ، صيف عام 1987 م ، موعد مع القدر ، طائرة الانتينوف الروسية رابضة على ارض مدرج مطار الكفرة ، صحراء جنوب شرق ليبيا ، " بنينه " هو الاخر ينتظر ، شاب في مقتبل العمر ، يتطاير من عينيه شغف المغامرة ، نظرات متوثبة ، قلق يحاصره وكأنه مرتاب من امر ما . ذلك لا يعنيني ، انا مجرد طبيب ثم استدعاءه للقيام بمهام وواجب وطني ، رفقة الجيش الليبي في مواطن متقدمة ، اسعاف جريح او معالجة مريض من ابناء وطني ، يقبع هناك في اقصى هجير الصحراء ، يعاني العزلة ، ووحشة المكان ، وصحراء يباب ، يطارده سافي الرمال من ناحية ، وجنود تشادين يتربصون الكيد به ، والانقضاض عليه ، الاكتئاب والقلق ولحظات الانتظار المرعب ، كل ذلك كان ماثلا في مخيلتي ، ما حفزني الى ان اسانده ، كيفما كان ، انا لست سياسيا ، انا الاخر مجرد جندي مأمور في مجتمع يعتنق عقيدة " الشعب المسلح " .

وجهتنا قاعدة السارة في عمق الصحراء الليبية ، على مقربة من الحدود التشادية ونقاط التماس والمواجهات ، احدق فيما حولي ، وفي كل مرة اجدني

وجها لوجه مع ذلك الواقف بجواري ، يرميني بنظراته الحادة ، وكأنه يقرءا كتاب على صفح خدي ، التفت يسارا ، اعود مرة اخرى ، وكلما ادرت نظرى نحوه ، ادرك قدر اهتمامه بمتابعة حركتي ، تمعن وتحديق اثار توجسي . ساورتني شكوك حوله ، تساءلت : ألا يكون ضمن فرق الاستخبارات ويريد ان يراقب القادم الجديد .. ربما .

يرتدي بذلة كاكي بطاطية اللون ، تجاعيدها المتسخة تنبئ بلا مبالاة ، لون العرق وطفح الملح على سطحها يرسم خرائط الكد والتعب ، انثناءات سرواله خلف ركبتيه تؤكد عن زمن طويل ظل لصيق جسده .

مللت الانتظار لساعات ، حان اخيرا .. موعد الصعود الى الطائرة ، والتخلص من نظرات " بنينه " . وجدتني داخل هودج الطائرة رفقة ثلاثة ضباط من افراد القوات المسلحة ، وشحنة تموين منوعة ، تمر ، عصائر ، اجبان ، الى غير ذلك من مواد غذائية مختلفة . وفي الواجهة جلس بنينة صامتا ، يلملم كته العسكري ، الخرج الحاوي لحاجياته .

برهة من الزمن اصبحت الطائرة في الاجواء ، وبعد مضى نصف ساعة من الطيران ، وبينما كان الضباط مستغرقون في مراقبة عبور فيافي الصحراء عبر نافذة الطائرة بمعية منظار صغير . هم " بنينه " بعمل اخر ، فتح الكت ، واخذ

يحشوه بما لذ وطاب من اصناف المأكولات ، دون خشية لوجودي وملاحظتي لفعلته ، ، ودون خلسة او عتب ضمير ، ولو لم تتورم احشاء الكت ، لما توقف . اصابني ذهول وعجب شديد ، سرقة بلا قناع ، " عيني عينك وفي وضح النهار " ، هكذا بدأ لي الامر . انتابني قلق وشعور بالخوف من القادم ، ولابد ان اخرون مثله في انتظاري .

فجأة ، وقد انهى مهمته ، واطمأن على الغنيمة ، اقترب مني متسائلا بجرأة غير معهودة : " كنك با بوناخي .. مد ايدك " !! . ترددت في اختيار الاجابة ، وبنوع من المجاملة الساخرة ، ابتسمت ، ولم يترك لي فرصة هو الاخر ، اردف بالقول : " رزق الحكومة كيف الرميمة .. منين يواتيك أنتش" !! . ودونما اطلب التعرف عليه ، عرفني بنفسه ، " بنينه " جندي ضمن قواتنا المسلحة الرابضة بالجنوب .

يااه .. ما هذا الرجل الذي يريدني ان اتحول الى لص . ويعرفني بنفسه دونما اطلب اليه . واعدت السؤال على نفسي ، ألا يكون احد عناصر الاستخبارات يستدرجني ؟ انا لا يمكنني ان اتصور يدي وقد امتدت الى المال العام ، فما بك وأمانة ، حق اخرون يقبعون في ظروف مغايرة غاية في القسوة .

تراكمت شكوكي اكثر ، لكنه لم يعير اهتمام للضباط الكبار المرافقين لنا ايضا ، انه منهم .. نعم ، ام انها سنة معهودة بين افراد المؤسسة العسكرية ، ربما .. فخ جهاز الاستخبارات .. ربما .

اخترت الابتعاد عنه شيئا فشيئا . وكلما ابتعدت ، دنا مني يلاحقني . وما ان اصبح لصيق بي ، أشار بإصبعه نحو الضباط . وهمس في أذني : انهم عسكريين ، ويبدو انهم " دايرينها "؟!! .

" دايرينها " ؟!! .. عند هذا الحد تأكد لي انه يقوم بعمل استخباراتي . فالحرب في الجنوب لا تلقى ترحيبا في اوساط الشعب ، ألاف الارواح ازهقت ، واموال بالمليارات هدرت ، وحالة تململ وضجر يطويه الطاغية المستبد في ثنايا حناجر الافواه ، فلا تنطق الالسن بعبارة امتعاض . ولابد انهم يختبرون كل من هو متجه الى الجبهة او سيعمل قريبا منها ، خشية تعرية وقائع الهزائم . ولما لا ؟ ولكن هيهات .. هيهات .. ادرك ألاعيبهم ، خبرتهم بالممارسة منذ زمن طويل ، وعلى رأي المثل : " على مين يا طبرق " . تصنعت البلادة ، واللاكثرات . لكن هيهات .. " بنينة " لا يتوقف عن الهمز واللمز والوشوشة حول الضباط . وما عساهم فاعلون .. هل يصدق تخمينه بان الطائرة مختطفة وفي طريقها الى مصر .. ربما .. طالت الرحلة .

- 2 -

خيبة وامتعاض بنينة .. كسر رغبته في الفرار .. وان لم يكن في الامر غرابة ، فقبل ايام هرب طيارين الى مصر .. احدثت ضجة اعلامية .. تصدر الخبر نشرات الاخبار .. وعند نشرة اخبار اذاعة لندن .. يلتقون .. الكل كان يتنصت لمعرفة من هم ، مصيرهم ، وهل سيتركهم وشأنهم .. وما عسى ما ينتظر اسرهم من تخوين وازدراء .

جالس بمقعدي .. اهمهم وانتظر لحظة الوصول .. اقترب مني احد الضباط برتبة مقدم .. عرف بنفسه ، المقدم عبدالسلام ، يرتدي هندام متسق ، مزاجه الاعتزاز ، والضبط والربط العسكري .. لباقة في الحديث ، هو من شحات ، وعلى طريقتنا في التعارف " تعرف فلان " .. نعم سالم صديقي وابن دفعتي كلية الطب جامعة قار يونس . انقطعت عني اخباره ، قيل انه انزوى خارج البلاد . وغابت اخباره .

وعن طبيعة عمله ، قائد لواء ميكانيكي .. معسكر " بوعطني" بنغازي .. وفي طريقهم العودة من ارض " الفاشر" في السودان .. مكث هناك عدة اشهر ، والآن صدرت الاوامر بتوجه اللواء الى منطقة السارة . عرفت منه ان قواته

تعرضت لهجوم ولكن لم تفقد احد من جنودها .. وانه كان بارعا حريصا على التنقل وتغيير موقعه . وبسبب ضحالة ثقافتي العسكرية ، لم اكن اعرف الفرق بين الرتب .. لواء .. عقيد .. شرح لي تراتيبها ما ساعدني على تحديد اوزان الضباط القادة .

كان لبقا ، له حضور في النفس .. ومن باب الدعابة وتلطيف الاجواء .. لمحت امامنا كومة من الاحذية الرياضية .. قلت .. انها صالحة للعدو السريع على الرمل .. اقصد حالة الهروب كما حدث قبل ايام بوادي الدوم . وأسراب الناجين الهاربين من المذبحة . ابتسم .. دون ان يعلق .

شكرت الفرصة التي جمعتنا ، حييته بما يليق به . وفي الاثناء اقترب بنية بحرفية عسكرية ، ادى تهيؤ الاستعداد بجسارة فائقة ، وأرفقه بالتحية .. وارتجل خطبة .. سيادة المقدم عبدالسلام .. سمعنا عنك كل الخير .. همتك العالية ، وتواضع النفس ، وطيب السريرة ، واريحية المزاج . ونتشرف بك .. نالت كلمات بنينة من اذن المقدم .. ابتهج بخجل .. رد التحية .. شكرا لك .. سلمت .. وعاد ليرحب بنا ثانية .. لكن نحن في الطائرة .. خذوا راحتكم .. وغادر .. وما ان توارى عنا .. تنحى بنينه جانبا ، اسر في اذني : " هذا المقدم عبدالسلام حاجة كبيرة ، كوز كبير " .

حطت بنا الطائرة بقاعدة السارة .. وجدنا آمر القاعدة العقيد خليفة في استقبال المقدم عبدالسلام .. نظارات سوداء تغطي وجهه ، طابع الصرامة يكاد يقتله ، نياشين قوات الصاعقة تتدلى على صدره .. ادى تحية من باب المألوف .. وتعانقوا .. تبدو في ضحكاتهم نبرة بعيدة عن التكلف والروتين العسكري .. عرفت انهما اصدقاء قبل ان يكونا زملاء مهنة .

بنينه هو الاخر وقف في حالة التهيؤ والاستعداد العسكري ، يداه مفرودتان الى الاسفل ، رجلاه مضموتان .. هامته الى الاعلى ، والقى التحية .. رد الامر بشبيه لها .. رفع اصبعه مستوى تنية المرفق .. كدت ابتسم .. وانا انظر الى بنينه بسرواله المهلهل .. وثيابه الرثة .. والقبعة المفلطحة ، ومخلفات اعباء السفر ترسم تجاعيد وجهه .. يقدم تحية الواجب .

ذكرني المشهد بما قاله النقيب احمد عندما كنا سويا بمقر السرية الطبية في الكفرة .. بما يشي الى حالة التذمر والإحباط لدى زمرة القادة الضباط من المشاركة في الحرب ، وغياب التنظيم والإدارة .. حتى انه نقل عن المقدم خليفة ، انه كلف برسالة رسمية للالتحاق بأمر المنطقة الجنوبية الذي هو نفسه .

انتهت جوقة الاستقبال والسلامات .. الضباط .. امتطوا سيارة تويوتا رباعية الدفع وغادروا ، وجاء الدور على استقبال بنينه من قبل زمرة الرفاق والأصدقاء

الذين ينتظرون عودته بعد غياب .. كانوا يتغنون .. " مجاريد كشك " .. وبدأ بنينه عريس وسلطان زمانه .. يتراقصون ويهللون .. يرددون غناوة علم : كبانية إقلال الوالي .. مو غايب منهم لا والي .

لم يكن أحد في انتظاري .. بادر " بنينه " بتقديمي الى رفاقه .. تفضل يا دكتور .. اهلا دكتور .. هذا الدكتور حاجة كبيرة يا جماعة .. رفيق طريق والرفيق قبل الطريق .. طوال الرحلة كان الانيس .. خفف عني اثقالها .. خير جليس وو .. تركوا لي الكرسي الامامي بالسيارة التيوتا .. وامتطوا العربة خلف .. سار الركب الى حيث خيمهم ومأواهم .. بجوار العيادة .. هنا سأبدأ عملي منذ يوم الغد . في قاعدة السارة الجوية .. اقاصي صحراء الجنوب الليبي .. صحبة .. " كبانية إقلال الوالي .. مو غائب منهم لا والي " .

- 3 -

سر بنينه بلقاء الاصدقاء .. معانقة تتلوها معانقات .. في سلامهم طقوس الوحشة .. يقف احدهم قبل ان ينقض على صديقه معانقا ، برهة من الزمن ينظر اليه ، غير مصدق لرؤيا صديقه امامه .. بعد الفة تلاها طول الغياب .. ويأس من الميعاد .. فجأة يحدث لقاء . طقوس عجيبة .. ترى احدهم وقد وقف جامدا في

مكانه .. وشذى بلحن " غناوة علم " .. تعبيرا عن بهجة اللقاء .. كل ذلك يسبق العناق الطويل .. وصيحات تنفث اهات الغربة والفراق .

بنينه يزهو بين لمة الرفاق كطاووس منفوش .. هذا الذي بدأ لي اول مرة ، " راقد ريح " ، بسيط الحال ، ثمة سر يدور حول هذا الرجل ؟ لا بد من اكتشافه .

صحيح ان اغلب مستقبليه ورفاقه من المنطقة الشرقية ، لكنه ايضا بذات البشاشة مع اخرين مثلهم من فزان وطرابلس .. هذا ما بدأ لي ، وكان حريصا في كل مرة على تقديمي لهم والتعريف بشخصي .. هذا الدكتور .. احيانا يأمر احدهم لان يقف خصيصا لتحية الدكتور .. " سلم على الدكتور زين " .. وتحول المشهد في سعات بفضل دعابة بنينة وجرأته ، صرت انا الاخر ، كأنني صديقهم القديم الغائب ايضا .

كلما امتد سمرنا ، تزاحمت النكت ، المرح ، وبالأسئلة ايضا ، عن بنغازي ، وليبيا ، وأخبار الناس في المدن والقرى ، احوال معيشتهم ، وما يشاع انه حدث ، او قد يحدث قريبا . وعندما اتى على احوال الناس المعيشية ، اجاب .. حالة تصحر كما هنا في السارة .. " راكبها القحيط كيف بعضها " . . تصحر المجتمع .. قصد حالة العوز .. لا التصحر الثقافي والمعرفي الاكثر قسوة .

قحيط هنا .. لكنه اشد وطأة .. لا تلفزيون .. لا اتصالات .. عزلة في احضان الصحراء .. سكنى الخيام .. ندرة الماء .. يا لهذا القدر الذي ينتظرني .

اثنين من أصدقاء بنينة يقومون بواجب الضيافة ، وزع التمر والحليب .. ومن بعد وجبة العشاء .. وجدتني وسط هذا الحشد من المجندين .. عزاب وقليل منهم متزوجون .. تعرفت على الكثير منهم ، من الصابري .. سيدي يونس ، البركة .. ومن مجمل احياء مدينة بنغازي . تبين لي انهم مجندون قسرا . وعلامات السأم والغلبة ترسم تجاعيد الوجوه ، اصدقائهم الذين نجوا من مذبحة وادي الدوم موجودون بينهم .. يحدثونهم على واقعة انهيار الخطوط الامامية الصلبة فيما يزعم . وفي امتعاضهم ، وحسرتهم ، تقرأ سر تلك المظاهر الاحتفالية الصاخبة لعودة صديق ، ففي كثير منها ، كانت محاولة للخروج من اسر الفكرة .. وتزاحم الصورة المشوشة والمنذرة بالخطر .

خص بنينة بالسلام قادم جديد .. اسمه منصور الترهوني .. نهض من مكانه ، لمجرد طلته ، وفي غمرة ترحيب حار ولهفة اللقاء الحميمي .. ينادي عليه " نا دخيلتك ،.. نا دخيلتك !! " .. عانقه منصور بحرارة .. وهو يقول .. لا تهتم .. لا تهتم .. اعتبر الموضوع عندي .. اعتبره انجز وتم .. ابتهج بنينة للجواب ..

والتفت نحوي .. همس بصوت متهدج .. هذا منصور .. " بوها وكيالها " . هو من سيتكفل بالموضوع .

أي موضوع يا بنينه ؟ اقترب مني اكثر واكثر .. وهمس بلغة الرموز .. فهمت ان الامر يتعلق بالبندقية 12455 .. اعدت السؤال .. بندقية ماذا ؟

قصه طويله يا دكتور، منذ اكثر من شهرين وهم يلاحقونني مطالبين تسليم البندقية التي في عهدتي ، رقمها 12455 ، وما حدث هو انني استوليت على البندقية ، ونكرت انها بعهدتي ، يعني " صكيتها " .

آها .. " صكيتها " ، متهم بسرقة بندقية ، لا بل هو من سرقها باعتراف عظمة لسانه ، في بلد يحضر فيه اقتناء بنادق الصيد ، اما السلاح الناري فتهمة التآمر والامبريالية والرجعية الجبانة ومتاجرة بالسلاح ، واقتناء سلاح دون ترخيص .. وواحدة منها تكفي لبلوغ حبل المشنقة الذي ينتظر . يا لقدري .. رفقة تاجر سلاح مشبوه قد يقع في الفخ ، او يعترف غدا قسرا .. وقد يأتي على ذكر اسمي ، وعندها .. " قول مشينا فيها كيلوا زيت " .. سكب الزيت وتبدد .

كنت متعبا جدا تلك الليلة ، والجوع ينهش امعائي ، ووجدت في وجبة التمر والحليب سد رمقي . وفي الاثناء وانا اهم بالأكل بنهم شديد ، اشار بنينه على احد اصدقائه بفتح الكت الخاص به لإخراج الغنيمة ، كان يتوقع ان يفاجئ الاصدقاء

بما جلب لهم معه خلال الرحلة . لكن احد زملائه ابتسم وهو يردد " كنك يا رَآه الخير كأثر .. احنا شفطنا كم شي صندوق من الطيارة لما جيناك بدري !!!" .. وتبين ان ما فعله بنينة من لصوصية بالطائرة لا يساوي الكثير ، مقارنة بما اختلسه زملائه والطائرة جاثمة على مدرج المطار ، لحظة استقبالهم له .

ما ان رأى بنينة غنائم الزملاء .. وقف مخاطبا الجميع ، لا تهتموا .. هذا ما يجب فعله ولقد فلحتم ، ولتعلموا انني حشوت الكت جيدا بما لذ وطاب ، من التمر ما يكفينا جميعا طوال شهر رمضان الذي هو على الابواب ، وكرر عبارته المعهودة " رزق الحكومة كيف الرميمة منين يواتيك انتش " .

قهقهات وضحكات تعالت .. كانت بمثابة اقرار المشروعية لفعلته ، ولفعلتهم هم ايضا ، ما طرح استهجاني جانبا . وترآى لي ان الامر اشبه بالمعهود او المتعارف عليه داخل المؤسسة العسكرية .

حان موعد صلاة المغرب ، قلة هم من اهتموا للأمر وشمر الصلاة ، صارت وجبة العشاء جاهزة ، " مكرونه مبكبكه خرز " .. نال منا الشبع وقد تحوطنا حول الاقداح على مجموعات ، قدح لكل خمس اشخاص . اختتمت بالشاي الاحمر الرقراق وقد اخد وقته الكافي على نار حطب هادئة ، " طاسة شاي حمره تقول قطران تقص المسمار وتمسح الكبد " .

متعب اصارع النوم ، وهواجس تتقاذف افكاري هنا وهناك .. عرفت اشياء اكثر عن بنينه ، وانه عندما كان بالكفرة كجندي بوحدة المخابرة ، تحدث ذات يوم مع زميل له بما يشبه الشفرة الغامضة . ردد العبارة : " بيعك تفريط يام قشاشيط " .. حينها فهمت اشارة قد تسبق عمل غادر ، ودونت في ملفه لدى جماعة الدعم الالكتروني ، ليبقى تحت المراقبة ، او لعلها فهمت ، " ام قشاشيط " هي البندقية ، و " بيع التفريط " بيع الحسرة والخسارة . فليس ثمة تفريط اكثر من بيع المرء سلاحه . في كل الاحوال العبارة اثارت شكوك حوله ، وألحقت به شبهة المؤامرة . وازداد شبهة عندما اكتشف سر البندقية المختفية ، وانه المتهم الاول . وصار السؤال اين البندقية ؟ وما نوع العمل الارهابي الذي كنت تود فعله ؟ ومن هم اعضاء المجموعة ؟

اخذتني الحيرة وقتا طويل ، قبل ان اخلد للنوم ، جالت افكاري بعيدا عن المكان والزمان ، عن العيادة التي تنتظرني صباحا لمباشرة اول يوم عمل .. وعن كل ما حولي والرحلة الطويلة .. وبات مجرد ذكر بنينه يبعث على التشاؤم . عقوبة حمل السلاح دون ترخيص لا تغتفر ، فما بال انه سرقها من المعسكر وأنا احد رفاق رحلته ، على رأي المثل : " كراع الديك تكر كراع الدجاجه " .. فقد تستدرجني اعترافات بنينة غدا وراء القضبان .. مدى الحياة . ومن تلتهمه السجون لا بصيص له بمغادرتها .. تمر السنوات والسنوات .. كما العادة في هذه

البلاد .. اعرف الان ان البندقية سرقها بنينه ، ومجرد صمتي يعد مشاركة بالجرم ، ومحاولة لقلب نظام الحكم .

- 4 -

رغم اعباء السفر والسهر ، استيقظت مبكرا هذا الصباح ، استعدادا لأول يوم عمل بالعيادة ، ارتديت جبتي البيضاء ، وجهاز تحسس النبض ، اردت ان يكون هندامي متأنقا لإعطاء صورة ايجابية في عيون الممرضين والمساعدين الذين ينتظرونني دون شك .

موقع العيادة قريب من سكناي ، بجوار سكن " الكبانية " ، مجموعة رفاق بنينه والذين كان جلهم من منتسبي سلاح الاشارة والمخابرة . كنت اخشى ان تكون بعض المعدات الاولية للكشف غير موجودة بالعيادة . او نقص بالأدوية وعلاجات الاسعافات السريعة ، وأنا اضع في مخيلتي تلك العيادة المجهزة بتقنيات عالية توائم ظروف الحرب . ولتأتي المفاجأة ، ما ان ولجت باب العيادة المهتم ، لم اجد احد ، لا ممرضين ، لا اجهزة ، والأتربة غمرت ما تبقى من ادوية ومقتنيات ، كراتين مغلقة بصورة عشوائية تحوي ادوية مختلفة ، منها ما هو منتهي الصلاحية . اصابني شيء من الاحباط والنزق والضيق . تسألت كيف

لي ان امارس مهمة الطبابة وسط هذه الغرفة الكئيبة والمتخمة بالقاذورات والأتربة . هنا يقيم اكثر من 2500 مجند ، كيف كانت تجري علاجاتهم ؟ في مثل هذه الاوقات العصيبة حيث تتوالى الهزائم وتنكمش رقعة الجبهات لتضيق حول المكان .. سقطت فادا ، ووادي الدوم ، وما بينهما . وعيادة الطوارئ والإسعاف بالخطوط المتقدمة تفتقد ادنى مستويات الاداء ، بل مقفلة منذ زمن على ما يبدو .

في الواجهة يوجد مكتب الطبيب ، لم اجد مكانا قابلا للجلوس ، نفضت ما امكنني من اتربة عن الكرسي ، وجلست اتأمل المشهد . جال بخاطري ما كنت فيه ، مستشفى الجلاء ، مستشفى الهواري ببنغازي ، قسم الاسعاف ، وكيف يمكنني ان اجعل من هذا المكان مقرا للاستشفاء ، النظافة والنظام اس برنامجه اليومي . بدأ لي ان الامر غير يسير ، وأنني سأحتاج لوقت طويل كي ابعث الحياة في هذا النعش . وبينما كنت في حيرتي .. دخل بنينه مهللا ومحييا بالطريقة العسكرية الصارمة ، وضحكاته التي لا تتوقف بسبب او بدونه . " صباح الخير دكتورنا ، اوامرك .. انا التمرجي " . وعلى طريقته همس بصوت خافت : " بلكي المرة الجاية نديروها هنكي " . اشار بيده ناحية الشرق ، ادركت مغزاه ، عسى ان تأتي فرصة الهروب نحو مصر ذات يوم .. وأكون كما في الوعد يوم الرحيل .. انت الدكتور وأنا التمرجي ، الممرض المساعد .

وجود بنينه ودعابته التي لا تتوقف ، خفف الكثير من احمالي ، وقبل ان اشاركه همومي ، تحسس شيء مما انا فيه . قاطعني ، لا تشغل بالك ، اعرف قدر حيرتك لواقع حال العيادة ، سأتولى الامر عنك ، لن نقبل ان يقوم الدكتور بأعمال التنظيف والكشط ، هذه مهمتي وزملائي واقسم اليمين " عليّ الطلاق الدكتور ما يمسك المكنسة ، عيب يا رَآه ، ما تنكتبش علينا !! " .. اترك عنك هذا ، ولنذهب سويا لتناول وجبة الافطار صحبة الكبانية ، الجماعة .

الفطور معلبات مختلفة ، سمك تونه ، طحينة ، مربى ، زيتون ، مع خبز ساخن ، وهو ما لم اكن اتوقعه .. وفي الاثناء صاح بنينه في الجمع ، انا التمرجي .. اعتبارا من اليوم لا يحق لأي منكم مخاطبة الدكتور مباشرة دون اذن مني .. والآن امامنا مهمة تنظيف العيادة وتهيئتها لاستئناف العمل . بعد الافطار مباشرة .

سألتهم .. اين الممرضين والأطباء الذين كانوا قبلي هنا ، يبدو انهم هجروا المكان منذ وقت طويل . أليس كذلك ؟ قال احدهم .. الكل " عفس " وأخرهم الممرض . هكذا اذن .. الكل هرب من المهمة ، وظاهرة الهروب من الجبهات مستساغة وليست عارا .. خصوصا بعد مهزلة الاستيلاء على قلعة وادي الدوم الحصينة والمتقدمة . وقصص المذابح والأسرى والفارين .

مواقف بنينه لمساندتي طوال الرحلة والآن ، ابعدت شكوكي وتوجسي ، بدأت اشعر بقربه مني ، وتقبلي لشخصه بكل توقير واحترام . وبالفعل ، بدأت اعمال النظافة بعد الافطار مباشرة ، عمل جماعي ، الكل يرفض ان اشارك في مهمة التنظيف . وكلما حاولت مساندتهم رفضوا وطلبوا مني الابتعاد . مع ذلك شاركت بالقليل ، ما زاد من احترامي لهم ، ورجح كفة المودة بيننا طوال مدة الرفقة .

خلال ساعات كانت العيادة نظيفة وجاهزة ، اعيد ترتيب الادوية بالأرفف ، اعلن بنينه اثناء تناول وجبة الغداء " مكرونه بكبوكي " ، ان العيادة ستفتح ابوابها لاستقبال الحالات مساء اليوم على تمام الساعة الرابعة والنصف ، ومن المتوقع ان يحضر حفل الافتتاح العقيد ركن خليفه آمر القاعدة ، (الملقب بالكنغرس) .

فيما بعد ادركت محض اهتمام الجنود بعودة العيادة للعمل ، فهي المكان الذي يفضلون اللجوء اليه بسبب او بدونه ، كما ان توقيع الطبيب يسمح لهم بمنح اجازة قدر ما يقرر ، وفي ذلك انقاذا لهم من هجير الصحراء ، ففي الاجازة يمكن فقط مغادرة القاعدة والمكان ، وفرصة رؤية الاهل بعد غياب طال . ومن هنا تأتي اهمية الطبيب ، وحرص الجميع على اقامة علاقة وطيدة معه .

لحظات ما قبل الافتتاح لم يتوقف بنينة عن اضافة لمسة جديدة صحبة الرفاق ، رش الماء امام المدخل وحول العيادة ، تلطيف اجواء حر الصحراء . وفي انتظار حضور آمر القاعدة غاب عن ذهني ما كنت اخفيه من قلق . جلس بنينه الى جواري ليبلغني ان المجموعة قرروا ان لا يقوم الدكتور مطلقا بأعمال التنظيف ، ولا الطبخ طوال مدة بقاءنا . شكرت له ولهم صنيعهم ، وحملته رسالتي لهم ، اننا اخوة على الحلوة والمرة .. وبودي ان اشاركهم دائما . ويبدو ان كلماتي كان لها وقع طيب في نفس بنينه ، اغرورقت عيناه بالدموع ، وهمهم .. هذا من نبل معدنك وطيب المحتد .. تعانقنا .. ثم اطلعني على برنامج الافتتاح الذي اعده ، ولا زلنا في انتظار حضور " القناقن " حسب التعبير المتداول ، أي الآمر وزمرة مساعديه من الضباط .

- 5 -

كان " بنينه" هادئا جداً وهو يبلغني بتفاصيل اكثر عن قطعة السلاح المفقودة " بندقه كلاشن " ، وما أظنه كان يدرك مدى الرعب الذي اعتراني عندما أكد ليّ انه سرقها ، كنت ادرك ان مجرد علمي بالتفاصيل دون ابلاغي للجهات المختصة قد يجر الويلات فيما لو خضع للتحقيق المبرمج ، واعترف بما لديه ،

ومن هو على علم بفعلته . تدور في دهني هواجس وشكوك ، وحالة من التردد لازمتني وافقدتني ردة الفعل ، بنينة الذي صار التمرجي ، يبدو زهوا ويعتز بأنها غنيمة .. انه لا يدرك قلقي .. ولا خشيتي من العواقب ، وفي هذا البلد لا شيء يعد جريمة لا تغتفر بمثل حيازة سلاح غير مرخص ، كما الحديث عن القائد وشأنه ، او اصرار شاب على اداء صلاة الفجر بالمسجد ، جالبة الشبهات .

افكر وأعود افكر عن مخرج من الورطة ، الرجل يحدثني بثقة ، يأنس بقربي ورفقتي ، وما عساي ان افعل لانفض زوابع الرعب التي تلاحقني .. تطوف بي الفكرة ، تجوب ذاكرة الماضي القريب ، هناك في واحة " براك " القريبة من واحتي " تمنهنت " ، يومها كانت حملة شرسة قادها رجال الكتيبة الامنية بالمنطقة .. رجال مدججون ، يلقون القبض على كل من ورد اسمه ضمن دائرة الاشتباه ، لم تستثني كبار السن ايضا ، وفي حلقات التعذيب والتحقيق ، فنون وتفنن ، الجميع سيعترف وان بعد حين . ولعل من طرائف تلك الحملة ان احد المتهمين اعترف بحيازته لسلاح غير مرخص ، وان القطعة مخبأة بإحدى زواريب منزله .. لكنه عندما نقل الى المنزل لإخراجها ، اخطأ في احضار اخرى لا تحمل الرقم الذي هو مدرج في كشوفاتهم ، ما اضاف نزق اخر ، فاض غيظ المحقق ، وأعيد تعيس الحظ لحفلات التعذيب من جديد .. وقيل حينها انه لم يعترف لهم بقطع السلاح التي بحوزته فقط ، بل وعدد سكاكين مطبخ منزله .

لم يتبقى من الوقت سوى ربع ساعة عن موعد افتتاح العيادة ، برنامج الافتتاح يجري كما خطط له بنينه والرفاق .. الكبانية .. ارقب تحركاتهم دون تدخل .. اقترب بنينه وهمس بأذني : " يتوجب ان تكون في صدارة المستقبلين لحظة حضور " الكنغرس " .. سألته من يا ترى الكنغرس هذا ؟.

- انه آمر القاعدة .. الكابو .. قالها وهو يحذرني من الاقتراب منه اكثر مما ينبغي ، وملاطفته بما يليق بمقامه ، انه الآمر الناهي هنا ، ومتوقع ان " يلعب فيها تسعه " !! .. يصدر اوامر ليست في الحسبان ، كما عادته حيثما حل وكان .. ومع قدومه " " تجي باقي الكارطة" .

- أي كارطه ؟

- زمرة الحراس والحاشية المرافقين لموكبه .. وعليك ان تعرفه من بينهم .. هنا لا احد يرتدي الرتبة العسكرية ، هم اشبه بورق اللعب " الكارطه " .. " الري " الكوز الاكبر دائما في المقدمة ، يليه الكوال ، الموجيرا ، الحيه ، الشيش ، التشنكوي ، الكواترو ، التريس ، الدوس ، اللاص ، الى الشنكة ، التي لا تضيف رقم عددي ، ولا شأن لها بالكوز .

وكأني ما ان افك طلسما من طلاسم " بنينه" حتى يأتي بآخر...أَدرك قصوري عن فهم الطقوس العسكرية ، وضآلة خبرتي بأعرافها .. اظهرت

امتعاضي من التشبيه . " شنكه " .. شيء لا قيمة له ، كيف يمكن وصف انسان بأنه فاقد القيمة .. ويبدو ان بنينه ادرك تأففي .

- نعم .. " شنكه " .. هؤلاء الجنود الذين نواريهم الثرى مع اطلالة كل صباح ، ومن تراهم لا زالوا على قيد الحياة .. ينتظرون المصير ذاته ، ويدركون نهايتهم القريبة ، بماذا يمكن وصفهم .. نعم .. انهم بشر لا قيمة لهم حال " الشنكة " .. (شنك ، لو كانهم بنادمين ما يريحوا حسافة) .

- لا تقل هذا .. هؤلاء جنود الوطن ، مأمورون ، يؤدون واجبهم .

تركني لحالي وهم بلحاق المجموعة المنهمكين في ترتيب اعدادات حفل الافتتاح ، مستمتعا بالقاء التوجيهات المناسبة .. (كثروا " التنتورا "، كثروا " التنتورا"، نبيها تفحفح في كل تركينه) .. ينثر مطهر الجروح كي يضفي فوائح الدواء والمعالجة على المكان ، لم يترك شيء للمصادفة ، يدقق في كل صغيرة وكبيرة ، يأمرني بارتداء المريول الابيض الذي احضره للتو .. البس يا دكتور .. لزوم وجاهة المهنة .. كما يفعل اهل الطبابة والاستشفاء .. لم يكن المريول مناسبا ، اكمام عريضة وطويلة .. تدارك الامر ، كفكف اطرافها ، وشذبها بما يلائم قدر الامكان في الحال .

ابتسم في صمت لحركاته وسكناته ، اترك له حرية التصرف ، اكبر فيه تلك الحيوية ، يرد بنوع من الارتياح والتباهي :

قريناها من طق لطق :: حفظناها من غير أقلام

صحافة واعلام تبقبق .. معمر فيها من قدام

قصيدة شعر شعبي متداولة ، يرمقني بنظرة مخادعة ، ابتسمنا سويا .

لم يتبقى من الوقت عن موعد الافتتاح سوى دقيقتين ، بالتمام والكمال الرابعة يجب ان ننتهي من تجهيز المكان لتبدأ مراسم استقبال الكنغرس .. اصر بنينه ان ابقى داخل حجرة العيادة للايماء بأنني منهمك في اداء الواجب ، وان لا اخرج الى حين لحظة وصول الكنغرس .. نريد له ان يدرك اننا شرعنا بالعمل ، ثم " كيف يا رآه .. انت الدكتور ، موش حاجه ساهله " .

اصطف افراد الكبانية امام العيادة في نسق منتظم ، الهندام العسكري بتمام هيئته قدر الامكان ، الاحذية اللامعة ، غطاء الراس ، النطاق المعتدل ، همة وأنوف شامخة ، تراصف وكأنهم شخص واحد ، وما ان اعلن عن وصول موكب الكنغرس .. اشار عليّ بالخروج .

تقدم بنينه تجاه سيارة الكنغرس بخطوات ثابتة ، وان بدت البدلة العسكرية الكاكي غير موظبة كما ينبغي ، لكن طلته وعنقرة " البريه " غطاء الراس ناحية اليمين ، وانتصابه كالجماد لحظة نزول الكنغرس من السيارة ، اداء التحية بهمة عالية ، صدم رجله بالارض وبقوة لحظة التوقف .. كل ذلك اضفى هيبة وحضورا لافتا لشخصه ، ورسم تعابير الدهشة على وجه الكنغرس المتغطرس .

موكب الكنغرس مكون من سيارتان ، يرافقه عدد من الحراسات ، عشرة جنود ، ملابسهم الانيقة اوحت لي انهم من زمر الضباط ، تقدمت نحوه وسط اصطفاف المستقبلين ، تبادلنا السلام بالأيدي ، وتحايا الترحيب بقدومه وتشريفه لنا ، انه العقيد ركن خليفة ، وتولى بنينة المصاحب لي التعريف بي وبمهمتي .

دخلنا العيادة وبدت علامات الرضا والسعادة ظاهرة على محياه ، وكذا مرافقيه ، وقد ابدوا ارتياحهم لنظافة المكان ، الأرفف وترتيب الادوية ، ويبدو ان رائحة التنتورا خيار بنينه عقمت المناخ من الاصابة ببكثيريا التذمر والإحباط المستشري . عندها انتهزت الفرصة للتعريف بمحتويات العيادة ، ضمنته قائمة النواقص من الاجهزة الضرورية للفحص والمعالجة ، والأدوية اللازمة الواجب توفيرها . وان نجد في زيارته ما يسعف . ولم اتغافل عن تقديم الشكر للمجموعة

" الكبانية وبنينة " .. الذين تطوعوا لإعادة بعث نبض الحياة بالعيادة .. وهو ما راق له سماعة .

ساد جو من الارتياح ، وفي كلمته اعرب عن تقديره للجهود ، وأمله في المزيد ، كما عرف ببعض مرافقيه من الضباط ، اسمائهم ، رتبهم ، وان كنت لا افرق بين الرتب العسكرية وما بينها من تفاوت ، لكن بنينه الذي لا يفارقني كان يهمس في اذني مع كل تعريف .. ، مقدم " ري"، رائد " مجيرا"، نقيب " كاوال" ، .. لكنه عندما ذكر الكنغرس اسم احد الضباط برتية عقيد .. ترجمها بنينة .. (انتبه هنا .. 11000 فولت .. ضغط عالي يا راه) . ادركت على الفور ، انه من العائلة .

قبل مغادرته .. كرر شكره للمجموعة ، وأعطى اوامره .. كل المجموعة تلحق بالعيادة .. تخصص سيارة " تيوتا لاندكراوزر " للعيادة .. تعطى الاولوية عند استلام التموين من المخازن لمجموعة العيادة دون رقيب . لاقت هذه الاوامر استحسان الجميع ، هلل " الكبانية " ببهجة .. لقد اصبحوا شبه مدنيين وسط قاعدة عسكرية .. اعفتهم الاوامر الصادرة من الروتين اليومي ، الجمع ، الواجبات المختلفة والمفاجئة في معظم الاحيان .. أشار " بنينه" في غمرة الاحتفال بتوزيع

التمر وعصير الكمثرى " مقتنيات الغنيمة " وبعض الفطائر التي اعدها خصيصا للمناسبة .

اثناء مغادرته اشار اليّ .. يمكنك مقابلتي متى تشاء بمكتبي ، دون استئذان او موعد مسبق .

هنا نظر اليّ " بنينه" بطرف العين .. اومأ بغمزة خفيفة .. وهمس لي بصوت خافت .. " بحبحت يا دكتور".. الخير قادم .

- 6 -

قاعدة " السارة " حيث حل المقام .. صحراء شاسعة .. امتداد الافق المتجهم .. قيظ الحر اللافح .. خيم متناثرة .. مئات من الجنود في حالة انتظار وترقب .. اشعر بتعب يؤرقني .. مراسم احتفال الامس .. اضاف لتعب السفر تعب اخر .. لا اجدني في اليوم الاول لمباشرة عملي مشرئب الخاطر.. مئات الجنود توافدوا على العيادة ولا زالت الاسراب تتوالى .. نوع من الفضول او لعل الفراغ الذي يحاصرهم يدفعهم لرؤية شيء جديد يكسر روتين اعتادوا عليه .. يتطلعون للأرفف .. يتفحصون الادوية المتوفرة .. يترثرون في كل شيء .. وفي المقدمة حواديث عن حرب تشاد .. متى تنتهي ؟ .. متى يعودوا الى اهلهم

ودويهم ؟ .. ام انها البداية وما ينتظرهم غدا .. السأم والقلق يكتسحا الوجوه .. لا احد يرغب في هذه الحرب اللعينة .

يكتسحني انا الاخر مزاج متردي متقلب .. نزق وقلق وحاجة الى التعود والتأقلم مع حياة جديدة .. بنينة التمرجي الذي صار يستشف مزاجي العام دون ان اخبره .. يخبر الجميع ان العيادة ستباشر عملها يوم غدا .. لقد فعل خيرا .. أتثاب بين الحين والأخر .. عند هذا الحد ، استأذنت الجميع بالمغادرة .. ومع ان الغرف محدودة .. تريلات مهتمة .. خصصت لي غرفة .. وأي غرفة .. سرير نومي عبارة عن قطع من الخشب رصت الى جوار بعضها البعض ، تستند على ثلاث لبنات بناء " بلوكات " .. على الجانبين .. الفراش منهك فقد لونه وسئم الرواد ، مع بطانية رثة شوكية الملمس ، ووسادة رسم عرق من سبقوا خرائط العالم باسره على سطحها .. اه ثم اه .. تذكرت غرفتي في بنغازي المدينة .. الفراش الوثير .. التكيف .. الماء والهواء المنعش الرطب .. ونسمات البحر .. " سبحان مغير الاحوال " .. واذ لا مناص ، واجفاني تتراقص .. استلقيت على الفراش ، اتقلب يمينا وشمال .. اطارد النوم بمراكب التعب .. صور تتوارد امامي .. ذكريات من زمن ولى .. عام 1975م عندما كنت طالبا بمدرسة سبها الثانوية طرقت اذني لأول مرة .. تشاد والتوتر على حدودنا الجنوبية .. صديقي نوري اخبرني يومها ان احد اقربائه بالجيش ، النقيب الهادي ، ومعه اثنى عشر

جنديا ، اختطفوا من قبل مليشيات تشادية على الحدود يقودها متمرد شمالي يدعى حسين حبري .. منطقة جبال تبستي .. واشترطوا لإطلاق سراحهم ان تقوم الحكومة الليبية امدادهم بالمال والسلاح .. كانت تلك الواقعة بداية تلمسي لمعارف حول جبهة فرولينا .. والجبهة الشعبية لتحرير تشاد .. والحكام المسيحيين في تشاد .. تمبلباي .. فيلكس مالوم .. وصراعهم مع مسلمي الشمال .. وان ليبيا تدعم هؤلاء الشماليين بقيادة حسين حبري الذي انقلب على الحكومة الليبية رافضا الهيمنة .. ومنهم من يقول ان السبب في تغيير موقفة توقف ليبيا عن امداده بالتموين والمعدات .. وفي متابعاتي لقصة المختطفين وقريب صديقي نوري .. علمنا حينها ان رئيس عرفاء ليبي يدعى " بوكر " .. مسؤول النقطة الحدودية بمنطقة تبستي .. تمكن من اجراء مفاوضات مع المتمرد حبري بعدما تمت تلبية طلباته .. وقيل ان " بوكر " العارف بطموحات المتمرد الناشئ .. ما ان انتهت المفاوضات .. نقل وصيته للقيادة الليبية يقول : " هال العبد يا تقتلوه يا يقتلكم " ؟!

بالطبع كان للقيادة الليبية طموح اخر .. وأصبحت المسألة التشادية اكثر تعقيدا .. اختلقت فصائل مسلحة اخرى بدعم من الحكومة الليبية هي الاخرى تضع الاستيلاء على السلطة في تشاد هدفها المرتقب .. ومع مرور الايام وتوالي السنين ، بات التدخل الليبي المباشر لا يخجله البحث عن مظلة محلية تشادية ..

تفاقمت الامور بدءا من العام 1978 .. وكشفت النوايا عن انيابها .. وبدأت جحافل الجيش الليبي في الزحف واحتلال تشاد الجارة .. الى ان وصلنا الى ما وصلنا اليه .. منيت القوات الليبية بهزائم فادحة .. ذهبت قاعدة وادي الدوم شمال تشاد والتي كلف انشائها المليارات .. وفوق كل ذلك .. التهمت تلك الحرب اللعينة ارواح الالاف من ابناء الشعبين الليبي والتشادي .. بلا اي مبرر .. اتذكر كل تلك السلسلة اليوم وانا اخمد في غرفة عتيقة بالية اطراف سريرة صحراء السارة .. اواه .. كم هي الآم الحرب دامية .. ابن قريتي " على " فقد ذراعه .. صديقي الدكتور عبدالسلام تخرج قبلي بدفعتين .. ساقه حظه العاثر الى تلك الحرب .. ووجد نفسه وسط قعقعة الصواريخ والمدافع بقاعدة وادي الدوم .. فاضت روحه هناك .. لا يعرف له قبر .. طمر جثثه سافي رمال الصحراء .. اتحسر لذكراه .. دمعت عيناي كثيرا تلك الليلة وانا اتذكر نهايته الكئيبة .. وكم احزنني انه رحل دون ان يذكر فضله .. ولم يأتي الاعلام على تأبينه .. لقد سرت العادة ان لا تذكر الخسائر المتراكمة .

آه ثم اه .. ما اقسى رحيل الاصدقاء .. الوداع الاخير .. تحدثني نفسي .. لربما لو انصتوا لنصيحة " بوكر" .. لكان عبدالسلام لا يزال حيا .. احاول ان استغشي وما بي نعسة .. صور ذكري صديقي عبدالسلام لا تتوقف عن عرض مآثره .. عمل بمستشفى غريان .. وما ان باشر عمله واثبت جدارته .. نقل قسرا

الى جبهات القتال .. لقي حتفه في بواكير العمر وقطف ثمار السنين .. كيف حال امه اليوم .. هل لازالت ذكراه تطاردها كما انا .. اجزم بذلك .

- 7 -

جلجل صوت الاذان .. هز سكون الصحراء .. افقت من نومي على عادتي .. نداء الصلاة في هذه الفيافي الجرداء .. بلسم الروح .. فجر يوم جديد لا كأي يوم .. افكر بما سيحمله لي القدر في اول يوم عمل .. النجاح والفشل .. التشخيص الدقيق للحالات في غياب اجهزة الفحص الدقيق .. انطباعات المرضى .. خوض تجربة لا عهد لي بها .. هذه اول مرة اجد نفسي في مجال الاسعاف والصحة العامة .. لا زلت افتقد التأهيل والخبرة الكافية .. ومن واجبي ان اجتهد قدر الامكان .

سعات ما قبل شروق الشمس بالصحراء لها وقع خاص .. نسمة خفيفة باردة منعشة تعبر المكان .. او لعلها تودعه ايدانا باكتساح موجات الحر اللافح صيفا .. ثمة مسجد صغير بالقرب من العيادة ، مسافة مائة متر ، التحقت بجمع المصلين ..، احصيتهم عددا ثلاثة وثلاثون ، العدد بعث في نفسي التفاؤل ، ففي التسابيح

المعهودة .. نسبح بحمد الله .. ونستغفره .. ونتوب اليه .. ثلاث وثلاثون مرة عقب كل صلاة .. يا لهذا الفجر الرائق المتخم بعبق المنن الروحية .

تناولت الافطار صحبة " الكبانية " .. جماعتي او الموظفين الجدد المنضمين لطاقم التمريض والإسعاف بالعيادة .. هم ايضا مسرورون بتفرغهم للمهنة ، رغم عدم معرفتهم بأدنى اساليب التمريض والإسعاف .. وفي وجود " بنينة " ، لكل حادث حديث .. اختار ان يوزع عليهم الادوار .. من يهتم باستقبال المرضى ، وأخر بالتنظيف ، وثالث الى جواري لتهيئة المريض .

الساعة الثامنة صباحا فتحت العيادة ابوابها لاستقبال اول حالة مرضية .

- السلام عليكم .. يومك سعيد دكتور .

- وعليكم السلام .. اهلا بك .. تفضل بالجلوس .. ما اسمك ؟

- امراجع .

- مما تشكو ؟ صمت للحظات ثم اعاد لي السؤال : هل لديك فهم بالأمور النفسية وسبل معالجتها ؟

يا له من سؤال على غرة ، ومما لم اتوقعه ، هذه اول حالة ينبغي لي التعامل معها بثقة .. اجبته .. لا اخفي عليك .. ليست لدي الخبرة الكافية بالمجال ، ولكن لا يعني انني فاقد الرؤية ، ربما استطيع ان اسعفك برؤيتي .

- رمقني بنظرة المتشائم .. قاطع بقية حديثي معه .. لا فائدة منك !! .. وخرج على عجل دون ان يكثرت بنداءاتي .. يا له من صباح اوله وعكة ، فما عسى ما يحمل المساء !! . شعرت وكأنه نهرني امام جمع المساعدين .. تظاهرت برباطة الجأش .. وتمتمت بعبارات .. سيعود ثانية لا تقلقوا عليه .. اعطوا الفرصة للذي يليه .

توالت الحالات المرضية ، من يعاني صداع الرأس ، حرقان بول ، بواسير ، الم في البطن ، أرق النوم ، الآم الظهر .. ومع الايام شعرت بنوع من الرضا في حديث المرضى ، ولدى مجموعة العيادة وهم الاقرب لمجريات العمل اليومي وعلى دراية اكثر بردود افعال المرضى .

اخبرني بنينه انه تتبع المريض الاول ليعرف سبب نزقه وخروجه على عجل ، وانه ما ان غادر العيادة توجه الى مكتب الامن بالقاعدة .. بقي هناك لمدة نصف ساعة .. لما اختار الذهاب الى مكتب الامن بالذات ؟ .. هواجس حاصرتني بأسئلة عدة ، منها ما يتعلق بقضية بنينة التي استوجبت عودته الى

قاعدة السارة .. وفي مثل هذه الحالات .. مكتب الامن يشكل بؤرة رعب لا تعرف الانتظار ، وقد تفاجئك بغير ما تتوقع .

فترة القيلولة وتناول وجبة الغداء .. ظللت افكر بتصرف ذلك المريض ، ازعجني خروجه وأسلوبه في الحديث .. لم اخلد الى النوم ، بينما الجميع يغطون في سبات عميق .. اتسأل : لماذا تصرف معي بهذه الرعونة المفرطة ؟ .. هل هو ضمن فريق الامن هنا ، ام انه ذهب لإبلاغهم عجزي وعدم كفاءاتي ؟ ..

نهاية الدوام الساعة الثامنة مساء .. جلست ضمن زمرة الاصدقاء .. الكبانية .. او الرفاق .. تحلقنا حول وجبة العشاء ، مكرونة " مبكبكه " ، وما ان هممت بمشاركتهم حتى دوت صافرات ابواق سيارات قادمة من بعيد ، وأضواء تحذير بالخطر .. وأصوات تزعق .. اين الدكتور .. اين الدكتور .. نهضت على الفور فزعا .. والتحقت بالعيادة ، لحق بي بقية المجموعة .. شخص جريح ينزف دما .. مصاب بعيار ناري بالقدم اليسرى .. ثم وضعه على سرير المعالجة ، ويا للمفاجأة .. تبين انه الشخص عينه الذي جاء يسألني صباحا عن معرفتي بالأمراض النفسية .. وأول مريض قابلته .. مراجع .

قمت بتضميد موضع النزيف ، مع حقنة لتسكين الالم ، ثم فحص الاصابة وتقدير درجة الضرر .. وما ان استقرت حالته .. حضر اثنان ظننت انهم

اصدقائه يودون الاطمئنان عن حالته .. طلبوا التحدث معه .. ولقد صدمت عندما سأله احدهم .. انت لا تحب الثورة ، وانضممت للجيش قسرا لا رغبة !! أليس كذلك ؟ اعترف .. اعترف انك لا تحب الاخ القائد !!! .

علا صراخه المتخم بالألم .. مبررا موقفه .. ليس لدي مشكلة مع احد .. لا مع القائد .. ولا مع الثورة .. مشكلتي مع آمر الكتيبة الرائد مسعود ، افرط في تعذيبي ، ابقاني السعات الطوال متسمرا تحت اشاعة الشمس الحارقة .. ضربوني جماعته " فلقة " حتى بح صوتي من الصراخ .. وتوقف جسدي عن التعاطي مع حجم الالم .. انا لا احمل ضغينة للقائد .. ولا اكره الثورة .. ليست لدي مشكلة مع احد .. لا القائد ، ولا الثورة .. مشكلتي مع من اهانني وعذبني عذاب الهدهد .. الرائد مسعود .

كانت الصدمة مروعة لي ، لقد حاولوا اخد اعترافاته وهو يئن من قسوة الالم .. تبين لي خبث نواياهم .. كتبوا ورقة بأنفسهم في الحال ، وطلبوا منه التوقيع عليها .. تدخلت على الفور وطلبت منهم مغادرة العيادة ، حدث بيني وبينهم نوع من الشد والتوتر ، انتزعت الورقة التي ارادوا ان يرغموا الجريح التوقيع عليها ومزقتها .. ارتفع صوتي مع تلكؤهم في المغادرة .. تدخل افراد مجموعة العيادة لتهدئة الموقف .. انتابني شعور بالغضب او الحماقة .. لا ادري

.. كل ما هناك انني لم ارتضي ارغام مريض يتألم التوقيع على اقواله زورا .. امام عيني .. انا الطبيب المعالج .

بنينه الى جانبي يهدئ من روعي .. انفض الكابوس .. عدت الى الجريح ثانية ، وقد بدأ اكثر حنوا وقربا مني .. غابت عنه رعونة الصباح .. قال بلطف : عندما قابلتك في الصباح كنت في حالة نفسية صعبة ، ومزاج مضطرب .. وعندما لم اجد لديك ما يعزيني ، اخترت الصمت ، لكنني ذهبت على الفور الى مكتب الامن ، ابلغتهم عن الكيفية التي يعاملني بها الرائد مسعود .. الضرب المبرح .. نزع ملابسي .. تركي عرضة لإشاعة الشمس لسعات طويلة في صيف الصحراء الحارق .. لماذا يحدث كل هذا الظلم ، ولا احد يمكنه ردعه ؟ .. لا لشيء سوى انني رفضت اوامره بأن اتولى مهمة الطبخ والتقديم لديه .. قلت له انا عسكري .. مهمتي حماية الوطن ، انا لست طباخ .. فلم يتوانى في التنكيل بي ، واخر ما تفتقت عنه حبائله اللعينة .. يريد ان يلصق بي تهمة معاداة الثورة ، ومقت القائد .. وواحدة منها كفيلة بقضاء بقية العمر داخل السجن .. ألا ترى يا دكتور كم هم اشقياء وظلمة ؟!!

في مكتب الامن اخبرتهم هذا الصباح بأنني قد اقدم على فعلة ما ، ان لم يتخذوا بشأنه حد يردعه .. فكرت في قتله .. وتراجعت او انني لم اجد الشجاعة

الكافية .. عند الغروب .. اطلقت عيار ناري من بندقيتي على رجلي اليسرى كي الفت الانتباه لمعضلتي .. هذا ما استطعت فعله ، وان كان نوعا من الجنون .

بالفعل حدث ما توقعه .. حضرت مجموعة من الضباط النافذين الى مقر العيادة يستطلعون الامر ، اجبتهم بأن حالته مستقرة الان ، ولكن علاجه يقتضي نقله على عجل الى مستشفى الجلاء ببنغازي .. يحتاج الى جراحة عظام دقيقة .. اجابني احدهم .. الطائرة جاهزة .. لقد تحقق له ما اراد .. لكنه الخروج من عذاب الى عذاب اشد .

- 8 -

اقلعت طائرة الانتينوف الروسية متجهة نحو بنغازي ، وعلى متنها العسكري الجريح مراجع ، لم تكن الضرورة تستدعي مرافقتي له ، حالته مستقرة . لكن الحادثة لم تمر كما اراد لها منتسبي مكتب الامن .. فما احدثوا من هرج ومرج داخل العيادة وخارجها ، وواقعة الشد بيني وبينهم وصلت على ما يبدو بفعل العيون المزروعة في كل الارجاء الى قمرة القيادة .

عند الساعة العاشرة مساء حضر الى العيادة الكنغرس بنفسه .. قدم الشكر للزملاء المساعدين " الكبانية " على ما قاموا به ـ سواء في اسعاف الجريح او

تهدئة التوتر - ثم طلب مني مرافقته نحو البراح الواسع .. تحدث بصوت خافت وهدوء ، اعتذر بالنيابة عن تصرفات افراد مكتب الامن .. وابلغني بانه على علم بدقائق فعلتهم ، دخولهم للعيادة .. كتابة تقرير مزور .. وانهم موقوفين الان قيد التحقيق ، وقد اعترفوا بفعلتهم وتعللوا بالخوف مما يحدث لهم فيما لو تتابعت التحقيقات في الحادثة .. كونهم لم يلقوا اي اهتمام بتوسلات العسكري المصاب .. ولا شكواه وتحذيراته .. ووعد بعقاب رادع ومنصف .

بدوري شكرت له تجشمه الحضور الى العيادة بشخصه ، وأكبرت فيه الموقف .. وان كنت في اللحظة ذاتها اشعر بأنني انا الاخر مدان وأتحمل قدرا من اثم الحادثة .. لقد حضر مراجع ليستشيرني قبل ان يختار الذهاب الى مكتب الامن ، ولولا انني صفعته بجهلي التام بالأمراض والأحوال النفسية ، لما اضطر مجبرا اللجوء الى زمرة الامن .

لعله من سؤ حظي .. كل الكتب التي احضرتها معي لم اجد من بينها ما يتعلق بمداواة الامراض النفسية ، واقتصرت على حالات الاسعاف السريع ، والجراحات المستعجلة ، وكل ما له شأن بأمراض الصحراء والحوادث والإصابات .. اخترت ان ابقى وحيدا تلك الليلة .. خلوة .. اعاتب النفس .. استرجع ما لا يزال في جعبة الذاكرة عن الامراض النفسية فترة التدريب

الاكلينيكي بكلية الطب جامعة العرب الطبية ببنغازي .. انفصام الشخصية ، الاكتئاب، الخوف الرعابي ، القلق ، الغثيان .. المعتل اجتماعيا .. ابحث عن اي مقاربة تفسر ما حدث للعسكري مراجع .. والدوافع وراء اقترافه لفعلته ضد شخصه .. حيرة تكتنفني وانا لا اجد في جعبتي التشخيص المناسب ، والإجراء اللازم لتفادي تكرار الحالة مع اخرين مثله .. وفي غمار الحسرة .. تذكرت فاجعة " حنان " .. تلك الفتاة الرائعة ابنة الأثنى عشر ربيعا ، توفي الوالد رب الاسرة ، وامام ظروف الحياة المعيشية القاسية ، والمعاناة الصعبة ، اضطرت والدتها للعمل ، نظافة بإحدى المرافق العامة .. تغيب عن المنزل لسعات طويلة .. تتركها لوحدها وشقيقها الذي يكبرها بخمس سنوات .. كانت قد لاحظت مسبقا تناوله لأقرص غريبة وهو لا يشكو من مرض ما .. بل وسمعت من احدى صديقاتها عن مفعول تلك الاقراص المتداولة بين الشباب وتأثيرها على العقل .. انتابتها شكوك حوله .. افضت بشكوكها الى والدتها التي لم تعبأ بها ، وذات يوم .. دخل عليها حجرتها في غياب الوالدة .. كانت حركاته غريبة وكأنه في حالة سكر او هديان عقل ، اقترب منها اكثر على غير العادة ، وضع يديه حول خصرها .. ادركت الخطر .. صرخت بأعلى صوتها طلبا للنجدة .. ولا مغيث .. لقد وقع المحظور .. اغتصبها شقيقها .

ظلت تكتم سرها .. تتجرع ألامها .. تختار الابتعاد عن شقيقها .. وما ان بلغت سن الزواج .. تعذر عليها الموافقة على من يتقدم لخطبتها .. ترفض هذا وذاك .. وتعلن عدم رغبتها في الزواج مطلقا .. لكنها لم تقوى على الرفض يوم ان فرض عليها شقيقها القبول بشخص تقدم لخطبتها .

في ليلة العرس .. انكشف الغطاء .. انقض عليها زوجها بالضرب .. والحق ذلك بالطلاق البائن .. لتعود الى منزل العائلة وفي انتظارها شقيقها الذي لم يجد ما يواري به فعلته سوى حجزها في غرفة ، اوصد الابواب ، وانهال عليها ضربا هو الاخر .. وظلت حبيسة الجدران والاهانات المتوالية لمدة شهريين متتاليين .. وعلى السنة الناس يأتي نعتها بأم الخطيئة .

دارت الايام والسنين .. ظلت على حالها حبيسة المنزل تطوقها جدران العار .. تزوج اخيها وصار له ابناء واسرة .. ضاق بها الحال .. راودتها فكرة الفرار من جحيم المنزل والسجن الذي لا نهاية له .. عسى ان تجد من ينقذها من براثن الاخ العاق .. وفي غفلة منه ، تمكنت ذات يوم من الفرار خارج المنزل ، وامتطاء اول سيارة اجرة صادفتها ، افضت له برغبتها في ان تجد ملاذا يؤويها بعيدا عن جحيم الاسرة .. فلم يمانع من اصطحابها الى وكر مهجور طرف مزرعة نائية .. وهناك احتجزها لنفسه ، ولتكون ضحية وحش اخر لا يقل

شراسة عن سابقه ، على رأي المثل السائد " هارب من الغوله طاح في سلال العقول " .. سائق التاكسي هو الاخر متزوج ويعول اسرة .. ارادها ان تكون له ، وفرض عليها الحياة حبيسة جدران بالية ، وحياة اكثر بؤسا وشقاء .. ومع توالي الايام .. اراد التخلص منها على قارعة الطريق .. اهتدت الى دار الرعاية .. وهناك وجدت الى حد ما من يتقبل وضعها .. ويقدر حجم الالم الذي تعاني .. استعادت الثقة بنفسها ، وقبلت عرضا للزواج ، وما ان روت للزوج قصة معاناتها بصدق .. انتفض كالأسد المذعور .. طردها خارج البيت لتجد نفسها مرة اخرى على قارعة الرصيف .. انتقلت من شرق البلاد الى غربها رغبة في البعد عن تلك الاماكن التي تذكرها بمأساتها .. وظلت على ذلك الحال " معتلة اجتماعيا " .. يتعذر علاجها .

جالت بخاطري معاناتها تلك الليلة .. بكل تفاصيلها التي لم تغادر مخيلتي رغم تطاول الزمن .. وبنوع من جلد الذات .. والشعور بالتقصير في حق مراجع .. تمنيت لو ان ذلك الدرس الذي تعلمته من معاناتها كان عونا لي حال مقابلتي لمراجع اول مرة .. انه الظلم الاجتماعي الذي يفترس وراء الجدران ضحايا لا نعلمهم .. وقليل ما نقبل بأعذارهم .. وفي الواجهة ذئاب يتطهرون من افعالهم .. يتظاهرون بالتقى وطيب السرائر .. وفي حقيقتهم وحوش الظلام المفترسة .. ما كان لحنان ان تتحول الى معتلة اجتماعيا .. ولا ان تبتر رجل مراجع .. لولا

ظلم اسود يرتدي لحاف ابيض .. يرانا ولا نراه .. ولابد ان غياب الطب النفسي والتأهيل الكافي ساهم الى حد ما في تفشي الظاهرة .

- 9 -

هذا الصباح بنينة على غير عادته ، البهجة والسرور ترتسم على محياه .. نشاط وهمة وحيوية وصحوة مبكرة .. تناولنا سويا افطار الصباح ، وبدأ وكأنه يريد ان يزف لي خبر سار .. وفي الحال اشار لي بالاستعجال ، ثمة ما ينتظرنا فعله قبل موعد افتتاح العيادة ، امامنا ساعة ونصف .. لنستثمر الوقت مع اطلالة الصباح .. يؤرجح بين اناملە مفتاح سيارة معقود بخيط طويل .. يراقصه يمينا وشمالا .. علت وجهه ابتسامة مشرحة .. وقال : " وصلت الحنينه يا دكتور " .. ادركت على الفور وأنا ارى السيارة التيوتا امامي .. ان الكنغرس اوفى بوعده .. سيارة العيادة تم استلامها .. السائق بنينة دون مزاحم .. وها هو يقترح جولة داخل القاعدة ، وأنا الاخر كنت متشوقا لمعرفة المزيد عن هذا الصرح الشاسع وسط براح الصحراء .

امتطينا السيارة التي لا تزال تحتفظ بفوائح الشحن والمواني .. القيت نظرة على عداد المسافات .. ودهشت عندما لاحظت انها لم تقطع سوى 80 كم فقط ..

سألت بنينة .. كيف وصلت الى هنا وهي لم تتجاوز مسافة محدودة جدا .. همهم قائلا .. هذه ومثلها كثير مما هو اكبر حجما ، ووزنا ، يأتي الى هنا محملا عبر طائرات ضخمة سترى خلال جولتنا عينة منها على مدرج المطار .

ادار محرك السيارة .. وبدأ هدير المحرك يكاد غير مسموع ، يعيد بنينه الدوس على عتلة البنزين .. ويردد مزهوا .. " البلا .. البلا .. اها .. الكنغرس معنقر .. يقول ويفعل " .

يكاد لا يصدق انه يقود سيارة جديدة وحديثة الصنع .. دفع رباعي .. صحراوية بامتياز .. يردد مرات ومرات : " بنينه يسوق في كرهبه جديدة أصفار" .. يعود ليفضي لي بمشاعره .. انا لا اصدق انني اقود سيارة جديدة .. لا بل مجرد ان امتطيها .. كانت هذه من الاماني البعيدة بالنسبة لي .. قضيت عمرا اتنقل عبر سيارات مستهلكة ، بل ومنتهية الصلاحية ، تتوقف بين الحين والأخر .. واعطاب هنا وهناك .. " قرباجات " .. الله يا دنيا .. ملك الملوك اذا وهب ، فلا تسألن عن السبب .

اثناء تجوالنا لم يبخل بتقديم شروحات عن الامكنة والمواقع .. قاعدة السارة انشئت على نقطة دالة عبر الصحراء .. على مسافة مائة كم عن الحدود التشادية .. مجرد معطن للماء لارتواء الابل والقوافل العابرة .. منذ عهد نشاط الحركة

السنوسية بين كوار والكفرة .. او ليبيا ووسط افريقيا .. انها نقطة وصل .. ومحطة للاستراحة والاسترخاء .. وها هي اليوم محطة وقاعدة عسكرية ضخمة .. " الله .. الله يا سيدي ادريس .. حيثما حطت ارجلكم فاض الخير كله " .. يتذكر السنوسية والملك ادريس وبصماتهم الخيرة بمعابر الصحراء .. معطن للماء وارواء العطشى ومن تقطعت بهم السبل .. باتت قاعدة لتصدير القتل والموت والدمار .. شتان بين هذا وذاك .

يضع مرفقه الايسر على سدة النافذة مع اتكاءة الكرسي .. يغمره زهو القيادة .. يبطئ السرعة .. يتطلع يمينا وشمالا بهدوء وسكينة .. يسهب في التعريف بمرافق القاعدة .. هنا مقر مركز القيادة حيث يقبع الكنغرس .. الى جواره بهو الضباط .. هناك مركز الاتصالات بالأقمار الصناعية .. دشم التسليح والذخيرة .. مقر مخازن التموين .. مخازن الاسلحة .. دشم الاليات الميكانيكية الثقيلة .. مقار كتائب الحماية .. " الميز " او المطعم العام للجنود .. وفي الطرف الاخر حيث القاعدة الجوية ومدرج الطائرات بمسافة 2 كم .. مركز المراقبة الجوية .. طائرات متعددة الانواع تربض على ارض المطار .. الانتينوف الناقلة الضخمة .. السونتيرتي .. السمركيتي الصغيرة الحجم والمجهزة بصواريخ هجومية طرف الاجنحة .. إمكانيات ضخمة في عمق الصحراء الليبية .. ذهلت من وجود كل هذا الكم الهائل من المنشآت والتجهيزات الضخمة .. لم

أكن أتوقعه بهذا القدر .. توقف " بنينه " بجوار احدى الطائرات القاذفة الضخمة ، قائلا " هذي اللي قربعت إذاعة ام درمان في الخرطوم".. تذكرت حادثة قصف طائرة ليبية لإذاعة ام درمان بالسودان الشقيق عندما كانت تذيع لقاءات مع افراد من المعارضة الليبية بالخارج .

بقدر ما غمرني الفخر بما تحوي هذه القلعة العسكرية لأجل حماية الوطن ، اثار لدي فضول السؤال عن اسباب تردي مدارج هبوط الطائرات بمطار سبها سرة الجنوب ، ومطار بنغازي بوصلة الشرق .. وكيف هي مهتمة لا تنبئ بأنها تنتمي الى دولة نفطية .

نالني العجب مما شاهدت .. لكن بنينة الحاذق بالخفايا .. قاطعني وأنا اردد .. خيرات .. خيرات .. ما شاء الله .. عن اي خيرات تتحدث يا دكتور **؟!!** وأين هي الخيرات .. بالله عليك **؟!** ..ما تراه غيض من فيض .. لكنه في مجمله " طايح في رايح " .. مآله الى ضياع .. ما تراه هنا من اكوام ترسانة عسكرية .. ومرافقها .. خسرنا مثله وأضعاف مضاعفة في انكسارات وهزائم متوالية .. اخرها قاعدة وادي الدوم .

وادي الدوم كان خسارة كبرى لا تضاهى .. يصعب وصفها .. وكثير ممن تراهم يترددون على العيادة ، هم من الجنود الناجين من تلك المذبحة الرهيبة ..

وهم قليلون بالمقارنة مع من التهمهم سافي الرمال .. من مات في لحظة اقتحام القاعدة .. الى من مات جوعا وعطشا في اتون صحراء قفر عارية .. ومن تحولت جثثهم فريسة للذئاب وهوام الصحراء .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، رحمهم الله .. لم اجد عبارة سواها تؤنس حسرتي .. وفي محاولة مني للخروج من نفق التاريخ والذاكرة الدامية .. سألت بنينة : ماذا عنك ؟ .. رغم الألفة التي جمعتنا لا زلت اجهل الكثير عن الدواعي التي اتت بك الى هنا .

- أيه .. يا دكتور .. (غير ايش نحكيلك ومن اين نبدأ ؟!... تَرّ وقاطر) .. ويبدو ان سؤالي حرك في نفسه شجون وشجون اراد ان يفضي بها تخفيفا لوقعها طي الكتمان .

انا يا دكتور " راقد ريح " اظنك تعرف ماذا تعني الكلمة .. فقير الحال .. أومأت برأسي تأكيدا لقوله .. اوقف السيارة .. وأسهب في التفاصيل وقصة عمر انقضى وأخر ينتظر النهايات .

والدي رزق بي في اواخر العمر ، منذ ان بلغ سن الرابعة عشر التحق بادوار سيدي عمر المختار ، وعندما استشهد شيخ الشهداء وضاق بهم الحصار ، لجأ الى مصر . ظل هناك لسنوات طوال .. وفي اوائل الخمسينات من القرن ،

ومع اعلان استقلال ليبيا ، عاد الى ارض الوطن .. اهلنا بدو رعاة يقطنون منطقة " مسوس " .. ومع عودته تزوج وحدث ان كنت انا اول العنقود .. اسمي احمد .. ويلقبونني بنينه .. فقد صادف لحظة ولادتي سرحان الغنم بمنطقة بنينة .. انا من قبيلة الشويخات " شيخي " .. اعتدت رعي الاغنام ما ان فتحت عيني على الكون والحياة .. الفقر .. العوز .. اضنى كاهلي .. وفي ستينات القرن اتيحت لي فرصة الالتحاق بمدرسة الابيار .. لكنني لم اكن مواظبا على الحضور دائما ، ففي موسم المطر والربيع اضطر لصدور المرعى وملاحقة القطيع .. ظللت على هذا الحال المتقلب الى ان حدث انقلاب 1969 م .. في البداية استبشرنا خير .. بنيت مساكن شعبية منتصف السبعينات .. تحصلنا على سكن افضل حالا مما كنا فيه .. وفاض الخير حتى تحصل والدي على عمل بالدولة .. مهنة غفير بالمدرسة .. لكن المرض باغته فلم يعمر طويلا .. انتقل الى رحمة الله .. رحمه الله وأمة محمد .. اطلت من جديد معاناة العائلة وضنك العيش .. والدتي هي الاخرى تعاني المرض ولا اجد حولا ولا قوة لمؤازرتها .. اضطررت لترك المدرسة نهائيا والتفرغ لرعي الاغنام والاهتمام بالعائلة .. والدتي .. شقيقي الاصغر .. وشقيقتي الاصغر منه .. لكنني مع الوقت ادركت ان الاستمرار في امتهان الرعي لن يكفي لسد حاجة العائلة .. ظللت ابحث عن فرصة عمل .. قصدت احد الاقارب طمعا في مساندته .. رحب بي وأضاف ..

المرحوم والدك انضم الى دور سيدي عمر في سن الرابعة عشر .. كان شجاعا وفارسا .. وواجبي ان ابدل جهدي لأجلك مهما كلفني ذلك .. ولن تبرح المكان قبل ان نصل الى دالة .. وبالفعل خلال يومين حظيت بفرصة عمل بشركة الخليج العربي للنفط .. وتم تعيني بأحد الحقول النفطية بالصحراء .. وذات يوم اثناء مغادرتنا الحقل ، اوقفتنا بوابة تفتيش وتجنيد ، " كبسه " .. انزلوني من السيارة ونقلوني مباشرة الى معسكر تدريب المجندين الجدد .. حلقوا شعر راسي حال وصولي .. والتحقت بوحدات التدريب .. (يس ، يم .. رجل ابدل) .. ومنذ ذلك الحين وأنا على هذه الحال .. جندي نظامي .. والدتي هي الاخرى لحقت بوالدي رحمها الله .. شقيقتي تزوجت .. وشقيقي التحق بالجامعة ، وبدوري اعمل كي اوفر له فرصة مواصلة دراسته .. لا اريده ان يحرم من نعمة التعليم مثلي .

لذلك اكرر يا دكتور .. نحن " تَرّ وقاطر" ، يعني " قذاف وخرا " ، من اعلى وأسفل .. حال قاطن " براكة زينقو" في ليلة ممطرة ، احوالنا بائسة منذ البداية .. ولأحقاب طويلة لم يتغير شيء .. وها هم يضيفوا الى نزقنا هم اخر .. تشاد وحرب تشاد .. كم من ارواح ازهقت .. " ضنانا راحوا حسافه " .. وما اراه ، انني انا الاخر سأكون احد ضحاياها .

قاطعته .. بعد عمر طويل .. تفاءل خيرا .. غدا تعود لبنغازي .. وتسعد بلقيا اشقائك .. وستبني عائلة تحمل اسمك .. وأطفال يسعدون بمستقبل زاهر .

- آه .. يا دكتور.. " مريم اللي في البال " .. خطبتها منذ اكثر من خمس سنوات ، اهلها ينتظروا لحظة اعلان مراسم الزواج ، يمر العام ويليه الاخر ، ولا بصيص امل للوفاء بالوعد .. واكثر من هذا ، ها نحن نقع بين فكي حرب لا تنتهي .. " غباره ثانية " .. حرب تشاد اتت على الاخضر واليابس .. كم من رفاق عرفناهم وتركونا .. شباب " راحوا حسافه " في عمر الورد .. امهاتهم المكلومات تقطعت اكبادهن حزنا .." الله يقطع اكبودهم انشا لله " .

" ما يغرك شكلي يا دكتور ، رانا شيوخ غير الوقت هو اللي معكوس ، اجدودنا فراسين يقدموا على النار، وديما على راس الميعاد ، لكن هالوقت عطيب " ، الرجاء في المولى سبحانه وتعالى .. اتألم لحال رفاقي المفقودين .. ورفاق لم نعد نسمع كيف انتهى بهم المطاف .. وآخرون فاضت ارواحهم لأجل لا شيء .. حرب خاسرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل .. اظنني سألحق بهم قريبا ، وما يحزنني ان تكون نهايتي حيث لا قبر يؤويني .. ولا مشهد علامة لمن رغب الترحم على تربتي .

طال الحديث .. سرقنا الوقت .. وحان موعد افتتاح العيادة .. هممنا بالعودة

- 10 -

بدأت حالات التردد على العيادة في ازدياد يوما بعد يوم ، رغم ان الاغلبية هم من فئة عمرية شابة .. تعلمت من واقعة مراجع درسا ، وفي ذاكرتي ان معظم الامراض الغامضة التي يتعلل بها المترددون لا تخلو من تأثير العامل النفسي ، بل وبدأ لي ان جميع منتسبي القاعدة مرضى نفسيين ، وكنت كلما اجد احدهم لا يستطيع حتى وصف ما يشعر به من ألم ، او نوبات تتوالى لا يعرف لها مسببات ، اسأله عن مدى رضاه عن وجوده هنا ، وما يشغله من امور تتعلق بالعائلة ، الى غير ذلك من الاسئلة عن تاريخ الحالة في محاولة للتعرف اكثر على مصدر قلقه .

ابعث فيهم الثقة للحديث مع الطبيب بصراحة ، ودون خشية من اي عامل قهري مسيطر ، وان ما سيفضي به سيبقى سرا .. تبين لي ان الجميع يرفض هذه الحرب ، ولا يرى مبررا للمشاركة فيها ، وانه امام الامر العسكري الملزم ، وحوار النفس الداخلي الرافض والغير قادر على ترجمة رفضه ، توالدت عند معظمهم حالة من الغثيان والقلق والإحباط ، بل والشعور بالانهزامية وجلد الذات

.. الجنود منهم بالذات ، بعضهم يسألني عن الغرض من هذا النوع من الاسئلة ، يتردد في الاجابة بداية الامر ، لكنه يعود ويقر بحالة الضغط النفسي التي تلاحقه .

لا اجزم بأن الامر عام .. العقيد مفتاح الذي يفضل ارتداء رتبته بخلاف المعهود هنا ، يكاد الوحيد الذي قدم اجابة مختلفة ، ينظر الى هذه الحرب على انها حرب عادلة فرضت على ليبيا ، وهي بالدرجة الاولى حماية للوطن من اطماع اجنبية تمس الامن القومي ، غربية منها بالذات ، وإن لم يخفي امتعاضه من اسلوب ادارتها ، وعندما حضر للعيادة لم يكن يشكو مرضا محددا ، بل حب استطلاع وتمضية وقت .

كان لزاما ان اترك له الفرصة ، لم استطع قطع حديثة او حتى مجرد ابلاغه بالمدة الزمنية المخصصة لكل متردد ، والتي هي عشرة دقائق في العموم ما لم تقتضي الحالة وقتا اكثر .. شعرت بالملل من حديثه حول معنويات الجيش ، واستعدادهم للدفاع عن " ثورة الفاتح " .. وفي نفسي اقول .. ان ما تقولة لا مكان له من الاعراب ، كل الجنود يشعرون بالتذمر ، ولا احد لديه الرغبة في البقاء هنا ليوم واحد ، بل للحظة اضافية ، ولو خيروا ما اختاروا هذا المصير مطلقا .. اوووف .. ما هذا الهذر الذي لا ينتهي .

كنت ادرك ان مجرد احراج هذا العقيد بمخالفته الرأي غير مقبول مطلقا .. وبنينة الذي يدرك دائما وجع معصمي ، طرق الباب ودخل منذ البداية ، وتظاهر بالبحث عن دواء بين الارفف ، وفي الحال زف الى مسمعي اشارة التحذير " 11000 " .. اي ان العقيد ينتمي للعائلة المالكة او الحاكمة ، احد اقارب " القايد " .. الرمز " 11000 .. استعارة عن شدة تيار الكهرباء .. ضغط عالي " متعارف عليها .

انتظرت الى ان اختار بنفسه لحظة المغادرة ، تلحظ في مشيته وهو يتبختر نوعا من العجرفة والتعالي ، وإن كان حديثه معي لبقا الى حد كبير ، وحمل ايات التقدير والثناء لفريق العيادة .. وما ان غادر .. عاد بينية يطمئن عن سير الحديث .. " رد بالك يا دكتور .. هذا كوز كبير " .. وفي الحال اخبرني بوجود " كمشه " ثلة من التشاديين بينهم طبيب يريد مقابلتي .. لا بأس .. افسح لهم المجال .

الطبيب يتحدث الفرنسية فقط مما صعب مهمة التواصل معه ، ما اضطره الى الحديث بما تيسر له من العربية .. (انا دكتور " كوات صديقه" ... أسمي " غمجه " انا فرهان ياسر انت فيه هانا... انا فيه كثير نفر.. مريض ويبي هلاج)

.

أدركت انه توجد هنا قوات تشادية يشار اليها بالقوات الصديقة ، وانه الدكتور المرافق لها .. يطلب علاج حالات عدة تعاني امراض مختلفة .. عرفت منه ايضا ان عدد القوات التي يرافقها 1000 جندي .. هنا قال بنينة القابع طرف الغرفة ، وبصوت منخفض : " خلا .. خلا .. ما منهم ها العبيد " .. لكن الطبيب فهم ما نطق به بنينه على الفور ، واشتط غضبا .. يسألني وعينيه تقدح شرر : (ما يقول ؟ عبيد !!) .. لتفادي الموقف .. نهرت بنينه ، وطلبت منه مغادرة الغرفة .. واعتذرت للطبيب عن تصرف غير لائق صدر عن جندي ، وبلغة عربية ركيكة كالتي يتحدث بها ، ابلغته ان العبارة في ليبيا تطلق على ذوي البشرة السمراء عموما ، لا بقصد وصفهم بالعبودية .

ما كان لبنينة ان يضعني في هذا الموقف الحرج .. لكن الطبيب قبل على مضض اعتذاري .. وفي الحال اردت ان اغير وجه الحديث .. سألته عن الحرب ، ودواعي تمردهم على حكومة تشاد ، واختيارهم ليبيا نقطة الانطلاقة .

أجاب : " يا دكتور تاريخ تشاد كله هرب " حرب " ، مرة هنا ومره غادي ، انا ما يبي حرب ، انا يبي يعيش في مكان فيه ميه وفيه برادات .. هنا في التشاد شمال كله صحراء .. ما فيه شيء " .

فهمت قصده ، انه يريد لشعب شمال تشاد حياة هانئة بعيدا عن الحرب ، يستمتع فيها الناس بالتقنيات الحديثة ، الكهرباء ، الماء ، الثلاجات .. الخ .. ووعدته بأنني سأهتم بتوفير قائمة الطلبات .. ادوية ، ومعدات طبية ، بالتنسيق مع القيادة .. الى هنا انتهت المقابلة .

فترة القيلولة وتناول وجبة الغذاء ، حديث " الكبانية " يعج بأمرين : زيارة المقدم " 11000 " او " الكوز" .. القوات الصديقة والطبيب التشادي " غمجه " .. الغريب انهم لم يكونوا مطمئنين لوجود هذه القوات التي تنعث بالصديقة جوار القاعدة ، وبعضهم لا يستبعد ان تنقلب القوات ذات يوم من قوات صديقة الى عدو شرس .

كنت قد وعدت الطبيب بأنني سأقدم لائحة الطلبات الى القيادة .. ذهبت الى مقر القيادة ، ثلة من الضباط من بينهم العقيد ركن محمد النعاس مساعد آمر القاعدة ، الى جواره العقيد مفتاح ، المقدم احمد ، الرائد يوسف المنقوش الذي اشاد زملائه بكفاءته بعدما غادرنا .

قدمت القائمتين معا ، نواقص العيادة من ادوية ومعدات ، والقائمة المقدمة من قبل طبيب القوات الصديقة .. وبعد اطلاعهم ، لاحظ احدهم انني شطبت ثلاثة ادوية من قائمة القوات الصديقة ، سألني ما السبب ؟ اجبته : الاول مضاد

حيوي من الجيل الثالث باهض الثمن ، وفي العادة يقتصر استخدامه على المستشفيات ، اما الثاني دواء مخدر لا يصرف في ليبيا إلا بأحكام ، اما الثالث علاج مرض السل وهو غير متوفر بالقدر الكافي في مستشفياتنا ، وارى إن وجد ، الاولى ان يستفيد منه الليبيين قبل غيرهم .

هنا انتفض العقيد مفتاح موجها لي زوبعة من الملامة : " كيف تقول يا دكتور ان ليبيا لا تتوفر بها بعض الادوية .. ليبيا ارض الخيرات وتنعم بكل ما يلزم لصحة المواطن .. وبلهجة حادة حذرني .. " الامور في ليبيا تمام مائة بالمائة .. رد بالك يا دكتور **!!** " .

لم اجد في جوابه ، ولا طريقة طرحة اي موضوعية ، اجبته بامتعاض شديد وشيء من الانفعال الغير مطلوب : " عندما قلت ما قلته ، كنت أظن انني حريص على ليبيا والليبيين ، كلامي ليس سياسة ، بل من واقع عايشته بأروقة المستشفيات قبل حضوري الى هنا .. هذه الادوية غير متوفرة ، وإن وجدت بكميات ضئيلة تنفد بسرعة .. الليبيين أولى من غيرهم .. ولا امانع ان كنتم ترون التشاديين اولى من الليبيين بها ، انتم اصحاب القرار ، انا مجرد طبيب واجبي ابلاغكم .. هذه حقيقة احاسب عليها غدا إن لم افصح عنها .

علامات الغضب ترتسم على وجهي ، ومحاولة اضماره غير مجدية ..
هنا تدخل العقيد النعاس وتولى الرد نيابة عني .. نعم ما يقوله الدكتور عين الصواب ، في ليبيا الكثير من الادوية غير متوفرة ، وازيدك من الشعر بيت ، حتى الاكسجين غير متوفر بالمستشفيات إلا ما ندر .. شعرت بارتياح لصراحته ، رغم عبوس العقيد مفتاح وعدم تقبله .. في تلك اللحظة وتوتر الاجواء يشتد فيما بينهم ، اخترت الانسحاب المفاجئ .. سمعت العقيد النعاس ينادي .. يطلب عودتي .. تجاهلت ، سيارة العيادة تنتظرني في الخارج ، ركبنا وعدنا ادراجنا للعيادة .

- 11 -

قبل موعد انتهاء دوام العيادة ، حضر العقيد النعاس ، العقيد خليفة غادر في مأمورية الى طرابلس ، وهو الآن آمر القاعدة ، لم يكن يرتدي رتبته العسكرية ، تواضعه وطيب سريرته جعله يلقى قبولا اكثر لدي الجنود .. سعدت والمجموعة بقدومه ، وهم ايضا كانوا على علم بذلك الموقف الذي حدث ظهرا اثناء ذهابي لمقر القيادة ، وزجر العقيد مفتاح ، جلس على كرسي المعالجة يطلب

استشارة طبية ، وفي جعبته يود ان يتحدث معي على انفراد ، وبنينة التمرجي ادرك ذلك ، خرج وتركنا في خلوة لوحدنا .

بدأ حديثه بالسؤال ؛ انت امنين يا وليدي ؟! .. سررت لنبرة صوته وعبارة ولدي .. اجبته : انا من الجنوب .. من سبها .

- انت يا وليدي قذافي وإلا مقرحي ؟!!.

لم اتوقع هكذا نوع من الاسئلة .!!. لا .. لا .. انا من قرية تمنهنت " الحميدية " .. 30 كم شمال شرق سبها ، وادي البوانيس .

- آه .. تمنهنت.. " التصنيع الحربي" ؟ .. بالطبع معظم الضباط العسكر يعرفون مجمع التصنيع الحربي الضخم الذي انشئ مؤخرا بجوار الواحة .

- أجبته.. نعم .. تمنهنت والتصنيع الحربي .

- هل تعرف الرائد " الزروق" ؟.

- نعم ، اعرفه .. من واحة سمنو ، من اهلنا بوادي البوانيس . كما انه صديق شقيقي وزميله بالمدرسة ، ونحن أهل البوانيس جميعنا يعرف بعضنا البعض .. نتشارك الأفراح والأتراح .. تجمعنا مصاهرات تمتد لأحقاب زمنية ممتدة .

اثنى على الرائد الزروق الذي عمل مديرا لمكتبه ذات يوم ، او بالمصطلح العسكري " قلم الآمر " .. تحدث عن سيرته العطرة ، مهارته ، كفأته في مجال تخصصه ، كلام جميل دغدغ مشاعري .. ولم يفوتني سؤاله الاول ، اعربت له عن الصداقة التي تربطني بالكثير والكثير من ابناء قبيلتي القذاذفة والمقارحة .. بل وجميع اهل فزان في العموم .. جميعنا قبيلة واحدة تعايشنا كما اسلافنا تربطنا المودة واحترام الاعراف لقرون مضت .. واومأت له بالتغير الحادث مؤخرا في التركيبة الديمغرافية لفزان ، والتي تعد حرب تشاد احد عناصرها .

- اعرف .. اعرف .. لكن يا دكتور انت لا زلت حديث عهد وتجربة ، صغير السن وفي مقتبل العمر .. انصحك ان لا تدخل نفسك في مشاكل لا تدرك ابعادها ومراميها .. احفظ لنفسك هيبتها .. قالها وهو يقترب مني اكثر ، وكأنه يفضي لي بسر خطير يجب ان احتفظ به قاع الجب .

تخديره ازعجني اكثر مما بعث الطمأنينة في نفسي .. سألته : اي مشاكل اختلقتها او كنت سببا في إذكاء لهيبها ؟.

- صارحني بالحقيقة التي يضمرها .. اظنك لاحظت كيف انني وقفت الى جانبك هذا الصباح عندما لم يروق للعقيد مفتاح قولك بأننا في ليبيا نفتقد بعض الادوية .. وكيف كان رد العقيد مفتاح مستهجنا .. نحن ندرك ان ليبيا تعاني ،

وان لا شيء يسير على الوجهة المطلوبة والسليمة ، ولكن ينبغي ان تعرف ايضا ان العقيد مفتاح مهمته هنا عين علينا جميعا .. وهو من المقربين .

يا الله .. الى اين يمضي الركب ؟ .. اظنني وقعت في المحظور !! وما عسى ان افعل لو فسر قولي نوعا من التمرد والرفض ، وانتحى وجهة سياسية !

.

- انا مجرد مواطن .. افندي النعاس .. وكما اسلفت حديث تجربة لا اعي كل هذه المطبات .. وما قلته كان بوازع الحرص ، لا الانتقاد .. ولا يعبر عن موقف سياسي ، لا من قريب ولا بعيد . انها الحقيقة التي رغبت في ايصالها للقادة .. دون مواربة او تزوير .. وظننت ان واجبي المهني يفرض عليّ ذلك .

وضع يده على ركبتي بنوع من الملاطفة .. لا تخف ، انا مسرور لشجاعتك ، لكن الحذر واجب ، فالوضع متأزم هنا ، وما حدث في وادي الدوم اضاف توترا اخر ، واخشى عليك ان تذهب ضحية وشاية مغلوطة .. ولا استغرب موقفك طالما انت من معدن وطينة الرائد الزروق الذي عرفته عن قرب " دمكم حامي لايعرف المجاملة " .. لكن الواقع يتطلب المرونة في التعاطي .. اعدك طالما انا هنا لن ينالك احد بسوء .. لكن احرص مستقبلا على تفادي هكذا مواجهات لن تفضي الى اصلاح شأن ، بقدر ما تجر المكاره لنفسك .. ليبيا يا

بني تعيش دوامة من العبث ، جيلنا الضحية الاولى ، " راح فيها " ، ولا نريد لكم ان تكونوا انتم الضحية الثانية .

قبل ان يهم بالمغادرة .. شكرته على نصحه والمودة التي غمرني بها ، ووقوفه الى جانبي لحظة الازمة ، وإنني لن انسى موقفه النبيل ما حييت .

ادرك المجموعة وهم في الانتظار بالخارج ان ثمة خطب ما ، وان الاجواء مشحونة ، يدفعهم الفضول لمعرفة التفاصيل ، وبنينة الاقرب لي على احر من الجمر ينتظر فحوى المقابلة والغرض من الزيارة .

آثرت ان لا افضي بما حدث للمجموعة ، لكن اصراره وحدسه ، او لربما تلصصه من وراء الاستار .. ساعده على تكهن شيء مما يدور .. الح عليّ .. اخبرته بالحقيقة .. انتفض قائلا : " حي حي حي .. هل جننت يا دكتور .. تلامس سلك كهرباء قوة 11000 ويدك عارية " .. ألم انصحك من البداية مرات ومرات .. الحذر ثم الحذر .. العقيد مفتاح .. الكوز هنا ، لا تغرك الرتب الأعلى منه .

لم يكن خافيا على الجميع النظرة الى اهل الجنوب عموما بأنهم انصار القذافي ، مخبرين " انتينات " ، وأعضاء لجان ثورية ، يتوجب الحيطة من تداول الشأن العام في حضورهم ، ومع مرور الوقت انتحت جانبا صورة الجنوبي

الامين المؤتمن ، الصادق في معاملاته ، الانيس العشرة .. طيب السريرة حد السذاجة .. وطغت تلك النظرة السوداوية التي لا تستثني احد منهم .. ساورتني انا الاخر الشكوك .. هل انا استثناء من تلك النظرة ، لا اظن .. الامر استفحل وصار حكما جازما .. اهل فزان لا ثقة فيهم .. انا هنا استخبارات .. شوشاد .. اتنصت اخبار العباد وانقلها الى دوائر الامن .. حتى وإن انتقدت امر ما ، تظل محل ارتياب ، لعلك تريد ان تعرف من يوافقك ، مراوغة امنية خسيسة للإيقاع بالخصوم .. خديعة يمارسها مدعوم .. يا لحظي التعيس .

اعي مدى سيادة تلك النظرة ، واعي ايضا ان الكثير من ابناء الجنوب تعاطفوا بحكم المنشأ والانتماء القبلي مع النظام ، خصوصا في سنواته الاولى وهو يعدهم بتحقيق شعاره الذي اطلقه في اول زيارة له لفزان بعد الانقلاب : " ان فزان سوف لن تكون نسيا منسيا بعد اليوم " .. لكنني اظن ان حتى اولئك الذين انساقوا اليه بالأمس ، وارتكب بعضهم اخطاء جسيمة او بالأحرى ورط بها .. هم نادمون اليوم .. وهم كغيرهم بل يشكلون الاقلية ، لكن محو النظرة السوداوية وقد نسجت وتجذرت اضحى صعبا وغير يسير .

لبرهة شعرت بالخوف .. ما عسى رد فعل العقيد مفتاح ؟ هل سيغفر لي زلتي ؟ اتوجس خيفة .. وانتظر المجهول .

مضى اسبوع على التحاقي بقاعدة " السارة " .. وها انا اجد نفسي احمل علامات الاستفهام ، تلاحقني تهم العداء المضمر للنظام ، او بالأحرى للثورة وقائدها ، ومن حيث لا ادري .. مجرد زلة لسان اريد لها احقاق حق .. صحيح ان زيارة العقيد النعاس خففت الكثير من وطأة التوجس ، لكنها بالمقابل جعلتني احسب خطواتي واحدة بأخرى ، احتاط لكل صغيرة وكبيرة ، التزم الصمت خشية زلة لسان ، او عبارة انطق بها تفسر على غير وجهتها ، عيون الرقابة منتشرة في كل زاوية وناحية ، الحيرة تقتلني ، اطارد الفكرة ولا اجد مخرجا .. اين المفر .. الصحراء من امامكم ومن خلفكم .. تحاصرني حيثما فررت .. لم اكن هكذا ذات يوم .. لم اخشى سوى ما يغضب الله ، ووالدي ووالدتي ، كنت دائما طائر حر ، يرفرف بجناحيه في الأعالي ، ادرك مكامن الخطر ، وحدود المعقول .. وأدرك ايضا ان ثمة امران في ليبيا ، خطوط حمراء ، من يقترب منها لا يأمن على نفسه ولا عائلته ، وسيلفحه صهيدها المزمجر ، " القائد " و " الثورة " .. كلمة واحدة كافية لوقف انفاس الحياة بالجسد .. ما لم تنتهي الى

زواريب سجون لا يعلم بما وراء قضبانها سوى من هو حبيس جدرانها .. ابوابها تفتح مرتين فقط ، يوم استقبال السجين لأول مرة .. ويوم مواراة جثمانه .

في السياسة اعمل بقاعدة .. " ابعد عن الشر وغنيله .. ما ادير شيء ما ايجيك شيء " .. وهكذا اتوخى المحافظة على علاقة جيدة مع الجميع .. لكنني اليوم اشعر بفقد الاتزان .. وبتجاوز الخطوط الحمراء دون وعي ، حياتي مهددة ، ومستقبلي رهين اللحظة ، اكره العبودية ، واعشق الحرية ، لكن عندما يصبح مطلب الحرية جسر يقود الى ظلام السجون ، يبدو التروي والحذر صفة عاقلة .

حرب تشاد كارثة ، استنزفت ثروة البلاد المادية والبشرية ، لم يستشار الشعب في خوض غمارها ، ولا يرى فيها قضية منصفة ، ذلك شعور عام مضمر لا تقوى الالسن على البوح به . ماذا لو ان الاموال التي هدرت على التسلح والقتل انفقت على دولة تشاد الجارة للرقي بمستوى وعي ومعيشة الناس هناك ؟ ماذا لو شيدت المدارس والجامعات والمكتبات بدلا من تصدير القنابل والمتفجرات ؟ اتسأل بصمت ، ولا اجد الاجابة .

تذكرت لحظات لم اندم علي قراري فيها ، يوم ان زارنا بالمدرسة الثانوية ثلة من العسكريين ، ملابس انيقة ، طله متعالية ، انفة وشعور بالثقة وعزة النفس ، اوهمونا بالانضمام لصفوف القوات المسلحة ، خدمة الوطن في ارفع ميادين

الشرف والمجد .. وعزف على اوتار الامة العربية وتحرير فلسطين .. بعض الزملاء اختاروا مغادرة كرسي الدراسة والالتحاق الفوري بكلية الضباط ، وكثيرون فضلوا مواصلة دراساتهم .. كانوا معذورين .. لم يتوقعوا ان تحرير فلسطين سينتهي بهم الى مجاهل صحراء تشاد ، ولابد ان تلك الامتيازات التي نسمعها ونراها تقدم لضباط الكليات العسكرية ، كان لها وقعها وتأثيرها على قرارهم ، سيارة حمامة 504 .. قطعة ارض ، الهيبة لدى الجهات العمومية بما يكفل تسهيل الاجراءات الخاصة ، وأشياء اخرى لا تستثني جذب انظار الفتيات بنجوم يتراقص شعاع لمعانها على الكتف .

اعود اليوم واتأمل المصير الذي انتهى اليه معظمهم ، حروب توالت ، يؤلمني انهم غادروا ولن نراهم ثانية .. حرب تشاد ، فخ لبنان ، مأزق أوغندا ، قفصة تونس، انقلابات افريقيا ، جبهات التحرر ، البوليساريو والولي الرويعي ، قرنق وجنوب السودان ، ابوسياف والفلبين ، نيكارجوا وارتيجا ، فرق صواريخ سكود لمناصرة إيران ، اريتريا وجبهة التحرير .. الى بوكاسا ، وعيدي امين ، ووو .. وكم من سلاح زرع بالقارة الافريقية ليمتطي سدة الجهل والفقر ، ويشعل حروب لا حصر لها ، من سيراليون وحرب ماس الدم ، الى ليبيريا وبوركينا وبوروندي والقائمة تطول .

اواه .. هذه الكليات العسكرية التي تستهوي الشباب ، اصبحت مصيدة تلتهم مستقبلهم التعليمي ، ومستقبل ليبيا الغد المنتظر .. الكلية العسكرية للمشاة ، الكلية الجوية مصراتة ، الكلية البحرية ، كلية الدفاع الجوي ، كلية الهندسة العسكرية ، .. الخ .. بل وأجبر الحاصلين على الاجازة الثانوية في احيان عدة على الالتحاق قسرا ، وفق التوجية الصادر عن وزارة التعليم العام .. وفي الواجهة من اجل بناء جيش قوي يحمي الوطن ، لينتهي بهم الأجل بين فكي تماسيح أوغنده ، وسافي رمال الصحراء التشادية .!!

اواه .. يمر شريط الذكريات ولا يترك بصمة امل ، صور حزينة تتوالى .. اصدقاء رحلوا .. اخرون يعانون .. ابن خالتي صالح الذي ثم تجنيده قسرا ، كان يرغب في مواصلة دراسته ، لم يتسنى له تحقيق طموحه ، عشرات المرات تمكن من الهرب من معسكر " الدعوكي" بسبها ، وفي كل مرة يقبض عليه ويعاد عنوة .. " التجيش القسري " .. يرفض ويعاود الكرة ما ان يجد الفرصة ، دون اكثرات بالآم السجن والتعذيب ، القفز من على اسوار المعسكر ، مخاتلة حارس البوابة الرئيسية ، الاختباء وسط سيارة القمامة .. حتى اصبح يتلذذ الهروب اكثر مما يأمل ان يحقق من ورائه حريته .

مشهد كبار السن وقد جندوا للتدريب على السلاح تحت ذريعة المقاومة الشعبية ، عسكرة الدولة ، وحيثما ابصرت ، معسكر تدريب ، وكتائب مقاتلة .. ترسانة الاسلحة الروسية الخردة .. ولا تسل كم من الاموال والميزانيات هدرت ، وذهب ادراج الرياح .. وكم منها التهمته جيوب الفساد والوسطاء .. المدارس اصبحت ثكنات عسكرية بإمرة ضابط ، الحصة الاولى والثانية تربية عسكرية ، اشبه بإزاحة لحظات صفاء الدهن .. استحدثت كلية الضابط المعلم والشعب المسلح ، ارتدي الطلبة والطالبات الزي العسكري ، وأضحت بذلة الكاكي الخضراء الزي المدرسي الملزم ارتدائه .

الحاج عبدالسلام رجل متدين وقد تجاوز سن السبعين ، يرفض ان ترتدي ابنته الزي العسكري ، يطوف مناطق الجنوب ، يردد دون كلل او ملل ، هذه مصيبة ، بناتنا ترتدي سروال عسكري ، وأبنائنا يساقوا الى الجبهات دون علمنا ، " ضيعتوا صغارنا " ، ولا احد ينصت لصرخاته ، ومنهم من يتهمه باستدراج الناس لمعرفة ردة الفعل ، وانه يعمل لدى الاستخبارات الامنية .

تبحر بي الذاكرة الى زواريب تلك الفترة ، اتذكر بنغازي والمقدم " احمد " معاون أمر اللواء ، يختلي بي ويحدثني بحرقة ولوعة عن الأوامر الصادرة ، تجنيد من هم قادرون على حمل السلاح دون اية اعتبارات .. حافلات تنتظر ،

وبوابات قبض .. ومن يجلبه حظه التعيس ، ينقل مباشرة الى المطار ، ومنه الى جبهات القتال بالجنوب .. حدثني كيف انه سمح للمقبوض عليهم بالهرب ذات مرة .. اوقف الحافلة وفتح الابواب ، وعندما وصل المطار ، ابلغهم بأن المقبوض عليهم تمكنوا من الهرب .. قال لي ان تلك كانت مجازفة ، ومخالفة للأوامر العسكرية ساعة النفير ، قد تنتهي بحكم الاعدام ، لكنني لم اكن قادرا على تحمل اثم نقل شباب صغير السن الى معركة خاسرة .. ولم يكن وحده يحمل الشعور بالامتعاض مما يحدث ، بل وكثير من زملائه ، لكن الصمت المطبق والنهايات المرعبة تفرض على الجميع تنفيذ الاوامر .. يمقتون الحرب ولا يجدوا الحيلة للتعبير عن مقتهم .. تذكرت له ذلك الموقف ما عزز موقفي ، قلت في نفسي : " قاطع الرأس خالقه " ، انا لم ارتكب مخالفة في حق الوطن والأهل ، بل حرصت على ان يعطى المواطن الاولوية في الدواء والعلاج .. وقرأت الاية القرأنية " قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا " .

- 13 -

في احيان ارى ليبيا بلد التناقضات ، وجيلنا الذي عاش وسط فرقعاتها يصعب عليه فهم المغازي ، شعارات تندد بالاستعمار ، وجيش جرار يجتاح دولة

جارة ، انقلاب على العهد الملكي ووصفه بالرجعية والتخاذل ، وما ان استتب الحكم لقائد الانقلاب على الملك ، وامتلك زمام السلطة ، اعلن عن تتويج نفسه لقب " ملك الملوك " ، نهر صناعي ينبع من صحراء جرداء وارض لم تعرف المطر منذ العصر المطير قبل 40 مليون سنة ، دعوى للسلام في الشرق الاقصى ، وإعلان الحرب على الجيران ، تشاد ـ مصر ، قفصة تونس ، شمال النيجر . التغني بالحرية والإنسانية وحقوق الانسان ، والسجون مكتظة ، وندفع فواتير تهم اسقاط طائرات مدنية ، وفزع الامنين في برلين وايرلندا ، جبهات تحرر وتجنيد للمتمردين في كل انحاء العالم ، ويغيب تكريم شهداء الوطن .. دعوة للاتحاد الافريقي ، وتمزيق افريقيا ، من سيراليون الى دارفور وجنوب السودان والقائمة تطول .. رؤساء افريقيا في الاعلام " نسور افريقيا ، وفي مجالسه الخاصة " عبيد نشتري مواقفهم بالمال " .. بلد المليون حافظ ، والفساد واللصوصية تنخر مؤسسات الدولة الكرتونية .. لا غرابة .. جغرافيا المكان ايضا .. بحر من الرمال على ضفاف البحر المتوسط .

هذا الصباح وجه اخر للتناقضات قلب لدي كل الموازين التي تعودنا تواليها ، شاب في عمر الورد قدم للعيادة ، يعرج ويئن ، قسمات وجهه تنبض ببراءة الطفولة ، وحداثة السن .. يرتدي لباس عسكري مترهل .

- مساء الخير دكتور .

- مساء النور .. خير انشاالله .. لا بأس عليك .. تفضل اجلس .. ما الامر اراك تتألم بشدة ؟ .. ما اسمك ؟ وكم عمرك ؟

- اسمي عبدالرحمان ، عمري سبعة عشرة عام .!!

- اواااه .. قلت في نفسي ما الذي اتى بهذا الطفل الى هنا ؟ وسط هذه الصحراء القفر ، والقحط القاتل .. يا الله .. تبين انه يعاني ألم برجله اليمنى ، وحالة ارق مضاعف بادية عليه .. طلبت منه نزع حذاء الرجل ، لاحظت مدى تلكؤه وتوجعه ، قمت بالمهمة بنفسي ، نزعت خيط ربط الحذاء ، صدرت عنه تأوهات الالم عندما هممت بخلع الحذاء العسكري على مكث ، انبعثت رائحة نتنة ، وبدا لي انه لم يخلع الحذاء لدهر ، او انه لم يتعود غسل ارجله والجوارب ، لا يهم ، ليس وقت التأفف من مجرد رائحة نتنة والطفل يئن ويتوجع .. نزعت الجورب بعد لآي وقد التصق بالإصبع المعطوب ، ظفر الاصبع نخر جانب الاصبع الملاصق له ، وتعفن الجرح .. قمت وبنينة يساندني بتنظيف الجرح ، محلول تطهير ، وشرعت في معالجته .. وكان لزاما تخفيف الالم الذي لم يقوى على تحمله ، بمخدر موضعي .. بعد برهة زمن ، ضحك عبدالرحمن .. قلت الحمد لله .. ها انت بخير وتبتسم .. وتوقف الالم .

- مضت ايام وأيام لا اعرف للبسمة طريق .. اتوجع .. وأتوجع .. وارى من حولي وهم يهرعون فزعا .. اتناسى وجعي .

- سألته : منذ متى لم تخلع الحذاء ؟

- ايه .. ايه .. يا دكتور .. منذ ثلاثة ايام .. جري مستمر .. لا وقت لأوجاع رجل او بطن .. الكل يعدو مسرعا .. الخوف يلاحقنا .. والوقت لا يسعفنا .. مسألة حياة او موت .. قصة رحلة الرعب .. من اين سأبدأ كي تعرف القليل مما حدث .. لا ادري .. كل ما هناك .. ذات يوم من ايام الدراسة ، حضر الى مدرستنا مجموعة من العسكر ، طلبوا منا ركوب الحافلات على عجل ، لأمر هام .. توقعنا انه ثمة احتفال وحشد جماهيري ، او مسيرة مؤيدة او مناهضة كما العادة .. تركنا كتبنا بالفصل ، وركبنا الحافلات ، لنجد انفسنا بمطار سبها تنتظرنا طائرة نقل عسكرية ضخمة ، اولجنا بها قسرا ، ولا ندري الى اين ، ولا احد يجيب على تساؤلاتنا ، الى ان حطت بنا في قاعدة " وادي الدوم " شمال تشاد .. وسط صحراء لا عهد لنا بتضاريسها ، مضت الايام الاولى ونحن في حالة ذهول ، كلنا يساوره الشعور عينه ، ماذا عن والدتي ووالدي ، اخوتي واخواتي ، هل هم على علم بما آل اليه المصير ، واين نحن الآن ؟!! .

سيارت عسكرية تولت نقلنا وتوزيعنا على المواقع ، على طول القاعدة وعرضها ، وسلمت لنا اسلحة خفيفة من تلك التي تدربنا عليها بحصة التربية العسكرية بالمدرسة ، رغم اننا لم يسبق لنا التعود على الرماية بها ، كلفنا بدور الحراسة ، وطلب منا ان يكون الاصبع على الزناد دائما ، وان نكون على اهبة الاستعداد لخوض المعركة القادمة .. كان الجميع ينهشه الخوف ، والجند النضاميين يتتبعون اخبار الجبهات المتقدمة ، وبدلا من ان يبعثوا في معنوياتنا الهمة والشجاعة ، بدأ الجميع يتحدث بآسى عن المصير المنتظر ، والهزائم الماحقة تتوالى ، في وادي الناموس اكتسح هجوم تشادي المواقع وقتلوا جميع الليبيين هناك .. يا للهول .. هم قادمون الى هنا حسب الاخبار والتكهنات ، نحو وادي الدوم حيث نحن .. يا لها من كارثة ، الفزع عنوان كل حديث .

بالمختصر المفيد يا دكتور .. " القيناها دنيا حايسه " .. لا احد يدري الى اين ستصير الامور ، الجميع يتوجس والخوف يحاصره ، النهايات المفزعة القريبة نراها ماثلة امامنا ، حتى عندما نغفو لبرهة .

الجبهات المتقدمة قتل من قتل ، وفر من فر على وجهه ، منهم من فقد الاتجاه التهمته انياب الصحراء ، والجوع والعطش ، ومنهم من كتب له عمر اخر ووصل الى وادي الدوم او واصل سيره شمالا .. وفي تلك الاجواء المرتبكة

بانت لي فرصة للهروب ، وبالفعل هذا ما اقدمت عليه قبل حلول الكارثة ، انجو بحياتي انا الذي لا معرفة لي بالحرب وفنون القتال ، وقعت عيني على " سيارة تيوتا " مما ترك المنسحبون قبلنا ، امتطيتها وهربت باتجاه الشمال ، اقتفي اثر المنسحبين قبلي .. وكنت كلما اوغلت بالصحراء اجد مجموعة من الفارين من لظى الحرب والهزائم ، اراهم وهم يرفعون الايدي يطلبون النجدة ، اتوجه نحوهم ، ولا اتأخر في انقاذهم .. وكلما انقذت مجموعة اسمع ايات الثناء وهم يصعدون السيارة .. " بارك الله فيك " .. " لولاك لقتلونا التشاديين " .. لكن افواج الفارين لا تنتهي .. وأنا الاخر عزمت على انقاد من يمكنني إنقاذه ، وكلما لاحظت زمرة تستنجد بي اتوجه نحوهم .. المريب ان السيارة لم تعد تسع الجميع ، والبعض كان يقول لي " خليهم .. ينجو القليل خير من ان نهلك جميعنا " .. اتركهم .. السيارة ستغرق بالرمال ولم تعد تحتمل اكثر ، وكنت لا استجيب لنداءاتهم ، قلت لهم صراحة " والله والله والله .. ثلاث .. لن اترك اي احد يستنجد بي .. اما ان ننجوا جميعنا .. او نهلك سويا .. لن تكتب عليّ لعنة التخلي عن ليبي يستغيث في رمال الصحراء " .. عزائي تخفيف السرعة قدر ما يمكن .. وكان ما كان ، طوال ثلاثة ايام من السير بالصحراء ، وقيادة سيارة على متنها خمسة واربعون راكب ، وانا السائق الرقم السادس والاربعون .. لك ان تتخيل كيف يمكن لسيارة تيوتا ان تسع هذا الكم من البشر ، وان تصل الى هنا بعد قطع براري وصحاري

، مهاد ووهاد ، اراض حجرية ورملية .. خلال تلك الرحلة كنت اتوجع بألم رجلي ، ولكن لا مجال لتفحص عضو من الجسد ، الجسد والروح مهددة بالفناء ، اللحظات عصيبة ، والوقت يمر .. وإذ لا مناص .

- انصت اليه بإمعان ، مسحت دمعة مخاتلة غادرت الجفون .. بللت خدي .. تظاهرت رباطة الجأش ، وأكبرت فيه الموقف .. ثم سألته : من اي منطقة يا عبدالرحمان ؟

- من سبها يا دكتور .

- اهلا بك ثانية .. انا ايضا من سبها .

بدت عليه علامات الارتياح .. وانهمرت عيناه بالدموع .. وما كان مني وانا ارى طفل يافع يتألم لفقد الرفاق ، وتفيض عيناه حزنا ، إلا ان احتضننته ، وضممته الى صدري اواسيه ، وقد اختلطت دموعنا سويا ، انهار من الدموع خضبت ثرى المكان ، تشكو مأساة وطن .

آه ثم آه .. ما أقسى وجع الحروب ، وما أنكر ما يفعله دعاتها وهم بعيدون عن حقيقتها وعمق مآسيها .. يا لهذا العالم الخانق الذي لا مكان فيه للبسطاء .. اعود وأتساءل .. كيف يصنع الوحش ؟.. وكيف لفرد واحد ان يقرر نهاية آلاف البشر ؟.. وكيف يمكن استدراج الالاف لحروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل ؟.. من

كان القاتل الحقيقي لخمسة وخمسون مليون انسان ؟ هل هو هتلر؟ أم جنوده البسطاء المغلوبون على امرهم ، او المغرر بهم ؟ الحرب جريمة ، إنها مجرد لعبة .. ولكن .. كيف لفرد من بين الجموع على هذه الأرض يقرر كل شيءٍ ؟ يزج بالآلاف في اتون مغامراته .

كنت اود ان اكون اكثر تماسكا وقوة ، لكنني فقدت القدرة على الصمود ، اتذكر قصة عبدالرحمان بعد مضي اكثر من نصف قرن ، واقرأ ما كتبه الطالب عبدالله صالح من مدينة مرزق بالجنوب في كتابه " من المدرسة الى المعركة " .. والتي جسدت مأساة الاثنين معا ، وثمة اخرون وآخرون ، لا يسعفهم القلم لكتابة تجربتهم ، ولا اظن ان احد تطوع للقيام بهذا الدور ، انها صفحة دامية من تاريخ بلادنا ، يجب ان تشحذ الاقلام لإبراز حجم الجريمة وعمق المأساة .. كي لا تتكرر .

حديث عبدالرحمان ترك وخز في خاطري ، واكاد لا اقوى على مواصلة الدوام ، يقتلني ضجر وملل وذكريات دامية عادت بي الى قصة صديقي الدكتور عبدالقادر .. عمل طبيب معالج بعيادة قاعدة وادي الدوم ، وفي غمار الحدث وانهيار كل شيء ، رأى بأم عينه مأثم قتل رفيقه الدكتور عبدالسلام ابراهيم ، كان حظه اوفر ، تمكن من الهرب ونفد بجلده ، لكن السيارة التي انقدتهم في

لحظة الموت ، توقفت ، غرقت العجلات في وحل الرمال ، ما اضطرهم للنزول ومحاولة دفعها ، وما ان تمكنوا من تخليصها من وحل الرمال ، فر السائق وتركهم للمصير المجهول .

كان كلما حدثني عن تلك الواقعة الماثلة امامه دائما ، يأسف ويرثى لاولئك الذين لا تزال حناجرهم لم تكف عن الزعيق ، وهم يهللون ويكبرون .. بالقائد الأممي والنصر المبين .

في ملحمة الرعب .. ثمة ثقوب للذاكرة .. اوآآآاه .. يا دنيا .. قبل قدومي الى السارة ما كنت اتوقع ان اعالج اطفال نزعوا قسرا من احضان امهاتهم ، ومن على كرسي الدراسة ، ليرمى بهم في جحيم حرب اعلنت خسارتها .. يا له من هدر للبشر والمال .. ويا له من نزيف وطن لا مثيل له .

يا لهذا الفقد المريع .. اشد من ازري ، ام من ازر عبدالرحمان ، ام بنينه الذي هو الاخر لم تكف عيناه تنهمر انهار دموع .. اربت على كتفه ، اشد من عزيمته .. يجيبني : " اسف دكتور .. تذكرت رفاق غادروا ولن نراهم ثانية .. ما قدرت نشد روحي " .

- 14 -

محور على محور وزيد محاور .. الجيش هارب والرصاص يناور

طوال اليوم لم تغب صورة عبدالرحمن عن مخيلتي ، براءة الطفولة ، طيب معدنه ، نقاء سريرته ، صدقه ، المحن والخطوب التي تلقفته ، وما قد تخلفه من اثار نفسية مستقبلا .

في العيادة كل شيء يسير وفق الممكن .. عدا مريض واحد لم اجد التشخيص الدقيق لحالته ، يعاني طفح جلدي مصحوب باحمرار وتشقق سطح الجلد ، قشور وصديد غطت البطن والظهر والأطراف . بدلت ما بوسعي ، وبما يتوفر من مراهم ودهانات ، مع مضاد حيوي لمعالجة الحساسية ، وطلبت منه ان يأتي في صباح اليوم التالي .

حالتين أخريين .. احداها تحمل علامات " الصفير" ، او الالتهاب الكبدي الوبائي ، وآخرى يعاني المريض نزيف شرجي ، قررت احالة كلاهما بوجه عاجل الى طرابلس .

في المساء عاد عبدالرحمن في الموعد ، معتدلا في مشيته ، وبدا افضل حالا من البارحة .. اصبحنا اصدقاء ، سبها تجمعنا ، محط تمائمنا ، وللمكان سحره في الذاكرة .

- اهلا بك عبدالرحمان .. كيف انت الآن ؟.

- افضل حالا بكثير .. وها انا اصطحبت معي رفيقي بالرحلة مصطفى ، يعاني تقرحات تنزف دما .. انه من المرج .. اظنك تعرفها .

- بالتأكيد .. منذ الزلزال .. وما بعده .

ابتسم مصطفى على ذكر زلزال .. تولى بنينة تغيير رباط جرح عبدالرحمان ، وهممت بالنظر في حالة مصطفى ، وضعت رجلة المتقرحة على لبنة بناء اسمنتي نستخدمها للمعالجة ، ازلت الجوارب بتمهل ، وتبين لي ان تلك التقرحات الدامية ناجمة عن السير حافي القدمين في رمضاء الصيف الحار .. وعندما سألته عن السبب .. اقر بذلك .

- نعم دكتور .. المشي حافي القدمين وراء ما ترى .. لكنني في تلك اللحظات لم اكن اشعر بوطأة الرمضاء ، انصب تفكيري حول مهمة واحدة ، النجاة من الموت .. لقد ساقني القدر لأن اكون ضمن القوات الرابضة بمحور " وادي الناموس " .. مهمتى جندي مخابرة رفقة آمر المحور الرائد محمود الزروق ، نتنقل بواسطة عربة بي ام بي ، وفي اليوم قبل الحادثة كان المحور الاول قد هزم اثر هجوم مباغت للقوات التشادية الاكثر عددا ، والأخف حركة ، وطلب منا نحن المحور الثاني ان نتصدى لأي هجوم متوقع ، وان نستعد للهجوم

وليس الدفاع فقط ، كانت قواتنا محدودة ، والمعنويات مترددة امام الانكسارات المتوالية وآخرها المحور المتقدم .. اعددنا العدة بتجهيز الاليات للحظة القتال ، وفقا للخطة التي وضعها الرائد الزروق ، اعلن حالة التأهب التام ، وقرر ان لا نبقى في المكان حيث نحن ، خشية ان يكون ثم استطلاعنا مسبقا ، تحرك الرتل وبدأ المسير ليلا ، بغية التمركز بموقع افضل ، توقفنا الساعة الواحدة والنصف ليلا عند نقطة التمركز ، هدنا التعب ، وبينما كان الرائد الزروق ينبه الى اليقظة ، كان اغلب الجنود قد ركنوا للراحة والنوم ، وظل طوال الليل يراقب مع من بقى مستيقظا ، وفي اثناء تفقده لمحيط المكان ، عثر على اثر لخفاف الابل .. لم يطمئن للأمر ، وطلب من الجميع التحرك ثانية للتمركز بموقع اخر ، تحركت الاليات وبدأ المسير ، وعند الساعة الثالثة والنصف ليلا توقفنا بمكان ظننا انه الافضل .. احتشد الجميع تلبية لطلب الآمر .. وارتجل كلمة : " انتم اليوم في الواجهة ، تدافعون عن انفسكم ، عن ارواحكم ، عن بقائكم على قيد الحياة ، خذوا حذركم من اي هجوم مباغت ينال منكم كما نال من زملائكم بالأمس ، لا احد يطلق النار دون اوامر بذلك ، انتبهوا .. انتبهوا .. لحظات فارقة ومصيرنا مرهون بمدى صلابتنا وصمودنا ، نحن في خطر ، القوات التشادية تحيط بنا من كل جانب ، وهم اكثر خبرة منا بالمكان وتضاريسه ، لا تتركوا جريح ، لا تتخاذلوا ، ليحمي كل واحد منكم ظهر الاخر ، وو الخ " ، تحدث حتى كل ومل

من التحذير بالخطر الداهم .. لكن الاغلبية غالبها النعاس ، وارق التعب والمسير ، ولم تكن المعنويات عالية كما ينبغي .. عند الفجر سمعنا اصوات رصاص ، فزعنا نتحرى الامر ، كان احد افرد المفارز شاهد حمار عن بعد ، اطلق النار عليه .. لم تكن القوات التشادية بالبعيدة عنا ، وقد نبههم الرصاص الى مكان تواجدنا ، وما هي إلا برهة زمن وقد باغتنا هجوم مفاجئ ، سيارات تيوتا خفيفة الحركة ، ومئات الجنود اضعاف عددنا ، ومع بداية الاشتباك تخلى الكثير من مجموعتنا عن مواصلة القتال ، وارتبك الموقف ، والخطة المزمع تنفيذها للدفاع لم تجد طريقها للفعل ، " الدبابات المجنزرة " في المقدمة ، عربات " صواريخ الجراد " في الخلف ، عربات " بي ام بي " في الوسط .. كنت رفقة الآمر .. شاهدت الدبابات تحترق الواحدة تلو الاخرى ، ومفرزة الجراد في الخلف ادارت ظهرها للمعركة وفرت منهزمة ، الرائد محمود يصرخ ويستغيث ، لا تنسحبوا ، ستضيعون جميعا .. ولا احد يستجيب لنداءاته ، اشار عليّ والسائق بالدوران للخلف وملاحقة المنسحبين ، تجاوزنا الكثير منهم وهو يهتف بيديه ، ثم اخرج رأسه من اعلى العربة .. وظل يكرر .. يومئ بيديه ويصيح .. ارجعوا .. ارجعوا .. ولا احد يستجيب .. طلب من السائق عكس الاتجاه والعودة الى ارض المعركة ، لم يكن لدينا ظهير ، وكان يقول لن اترك مفرزة الدبابات تسحق بمفردها ، ودون حماية ، وما هي إلا لحظات حتى شاهدت الرائد الزروق وقد

اتكأ على السائق ، ظننت انه يقول له شيئا ما ، فإذا بالسائق يصرخ اصيبت عربتنا ، اخرجوا منها .. يا الله .. خرجنا على عجل ، وخلال دقيقتين دوي الانفجار واحترقت ، تركناها وهرعنا نعدو ، عزل هاربين ، لقد ألمني فقد الرائد الزروق ، كما ألمني انه لقي حتفه امام عيناي ولم اجد حيلة لإنقاذ جثته ، كان من خيرة الضباط المقاتلين ، شجاعا ، فارسا ، قتلته شجاعته حد الجنون .. لحظات الفقد ، والحد بين الحياة والموت اقل من ثانية ، تفصل بينهما ومضة سريعة الحركة ، بين قلبك والرصاصة .. كنا على مقربة من جند التشاديين ، يطلقون نحونا وابل الرصاص وبغزارة .. نجى من نجى ، ومن حضر اجله وفى .

صمت لبرهة زمن .. بكى بحرقة جرفتني وأحالت العيادة الى مأتم عزاء ، يردد بزفرات موغلة في الالم ، يسألني : " لماذا يا دكتور .. لا تنتقي الموت سوى النجباء الانقياء .. الرجال الشجعان " .. الرائد محمود الزروق كان احدهم ، من الجنوب ، واحد منتسبي كتيبة الصاعقة ، اتألم لذكراه .. هل تعرفه ؟

- محمود الزروق الرشيد ، من واحة اشكدة ، وادي الشاطئ ، اعرفه حق المعرفة ، وشقيقه صديق لي ، ولم اكمل الحديث ، تلعثم اللسان ، اختنقت حبال الصوت ، داهمتني عبرة ، وامطرت عيناي دموع من دم .. يا للحسرة .. ويا

للحرب القذرة وهي تلتهم اجيال واجيال ، خيرة الرجال ، رجال الوطن الكليم .. ولا احد يعترف لهم ، ولا ندري اي بقعة ارض وري جثمانهم .

انهيت المعالجة لجروحه الجسدية ، أنصت لحواديث محزنة وفية ، ولا ادري كم بقى من اثار جروح النفس العصية .

- 15 -

بدأت اشعر بالرضى عن ادائي بالعيادة ، بعض الضباط يأتي عنوة لمجرد السلام والمؤانسة ، وبعض الجنود يتداول قصة شفائه ، مجموعة الكبانية مسرورين ومندفعين لإظهار العيادة وما حولها بالوجه الافضل يوما بعد يوم ، يحدثونني عن همس الكلام وردود الافعال .

مع مرور الايام لاحظت انتشار وعكة السعال لدى اغلب الجنود ، ويكاد المرض الطاغي هنا على الاغلبية ، وفي العادة اهتم بفحص الصدر بواسطة السماعة الخاصة ، اتحسس ما اذا كانت هناك حشرجة جافة ، او التهاب حاد ، واكتفي بصرف عقار " اكتفيد " .. غير ان العدد بدأ يتزايد بشكل ملحوظ ، وتكاد كمية الدواء تنفد ، وفي ذات الايام دخل احد الجنود وطلب علاج للسعال كما الذي صرفته لزميل له ، وان اصرف له علبتين بحجة انه يعاني سعال اشد ..

احترت في الامر ؟ وفي الحال تدخل بنينه وقال له : ليس لدينا اكتفيد والكمية نفدت !! .. استغربت تطاوله على تخصصي الى هذا الحد ، لكنني دائما انتظر ما سيقوله لي بعد كل تصرف اراه غير مناسب .. ومع ذلك لم اهتم بتصرف بنينه ، وصرفت للمريض علبة لا علبتين كما طلب .

في الفترة المسائية .. ومع تكرار الحالات عينها ، نفد الدواء بالعيادة ، سألت المجموعة عن الكمية المتوفرة ، قالوا لي : ان بنينه قبل ان يغادر صباحا ابلغنا بنقل الكمية بالكامل الى حجرتك ، ووضعها تحت سرير نومك .. (لبنات الاسمنت والخشبة والفراش العتيق) ، سألتهم : لما تصرف هكذا ولم يبلغني ، وسعال الكحة يفتك بمعظم الجنود ؟

ابتسم احدهم .. قال لي : لا .. لا .. يا دكتور .. لا كحة ، ولا حشرجة ، كل ما هناك .. " الجماعة يسمطو فيها " ؟!!...

- " يسمطوا فيها " ماذا تقصد ؟!!

- شرب الاكتفيد بكمية وافرة يمنحهم نوعا من النشوة التي توفرها الخمور ، هذا سر تفشي الكحة بالقاعدة !!!

ذهلت حقا .. وانا اتعب نفسي بسؤال المريض .. هل تعرضت لتيار ساخن او بارد ؟ ، هل تشعر بصداع ؟ وهل ، وهل .!! كيف يحدث هذا وانا الطبيب اخر من يعلم .

- يا دكتور .. هنا لا تحاول ان تعاند التيار .. نحن كنا نراهم يترددون ونعلم انهم اصحاء ، لكننا ندرك ايضا ان جلهم شهد معمعة وادي الدوم ، وأنهم قلما يجدوا فرصة للنعاس ، حالة من الهستيريا تلازمهم ، رثينا لحالهم ، ندرك ان وضعهم صعب ، اخترنا الصمت ، جلهم لا يعرف اين انتهى المطاف برفاقه ، هل هم احياء ام اموات ، ما حدث في وادي الدوم كارثة بمعنى الكلمة .. انهم معذورون .

لا يهم .. ليس هذا ما يشغلني الآن فحسب .. انما بنينه .. كيف هو الآن . في فترة الصباح احد المجموعة نادى عليه قائلا " جماعة الامن يريدونك " .. وردد اثناء خروجه " ربك يستر " .. لكنه لم يأتي بعد ، تمر السعات وقلبي معه .

اخيرا عاد بنينه .. تعلو وجهه ابتسامة .. كنا جميعا ننتظر قدومه على احر من الجمر .. خير انشالله ؟

- خير .. جماعة الامن وصلت اليهم برقية من قبل الدعم الالكتروني تطلب التحقيق معي حول بعض عبارات تفوهت بها اثناء مكالمة لبنغازي ، العبارات

استشكل عليهم فهمها ، وظنوا انها مشفرة وترمز الى امور امنية تتعلق بالقاعدة او تحركات القوات واخبار الجنوب .

- وما هي العبارات المبهمة ؟

- وردت مني عبارة " بيعك تفريط .. يام قشاشيط " اثناء مكالمة باللاسلكي .. طلب مني المحققين تفسير القصد منها ولما ترمز ، وكان سؤالهم الاول قبل طلب تفسير العبارة : ما الذي تخطط له ؟

اجبتهم .. اخطط بعون الله للزواج في اقرب فرصة ، مضى وقت طويل وانا احتجز ابنة عيث " مريم " .. وفي كل عام اؤجل للذي يلية ، الظروف المادية لا تسمح .. على رأي القائل : " العام هلي انقول تو يلاقي .. ان طلت العشاء ما نلحق المريولي " .. ضحك جميعهم .. استغربت .. وأضفت انها الحقيقة .. هذا ما يشغل تفكيري واخطط له .

انهى احدهم القهقهة الساخرة .. عاد يسألني والشكوك تساوره بأنني ارمي بالحديث بعيدا عما اخطط له فعلا .. وقال : لا .. لا .. نريد ان نعرف ماذا تقصد بالعبارة : " بيعك تفريط يام قشاشيط " .

ضحكت انا الاخر وقلت لهم : الهذا انتم تستجوبنني ويتم استدعائي برهبة افزعتني وزملائي !! ؟

- نعم .. لهذا نريد ان نستوضح .

- عن اي تخطيط تتحدثون .. فاتكم انني مجرد موال ، راعي اغنام منذ حداثة سني واوآن الصبا والشباب ، وعندما يشتد حر الصيف نقيم حفل للجلامة ، اي جز صوف الاغنام ، ومنها " الثنيان " عمر سنتين ، و " الحوليات " .. اثناء جز اصوافها نترك جزء اعلى الظهر ، نطلق عليه اسم " قشوطه " .. وما قصدته لا تبيع الثنيان ولا الحوليات .. ولكن يبدو ان جماعة الدعم الالكتروني بدلا من ان يتفرغوا للتصنت على القوات التشادية التي تباغتنا بين الحين والأخر ، متفرغين للتصنت على مكالمات جلامة غنم بنينه .. " عطبك عليك زمانات " .

اعادوا مراوغتي لساعات ، لم اغير اقوالي ، وعندما تأكد لهم انني لا اخطط لأي امر معادي ، او اتعامل بشفرات مبهمة لتمرير اخبار .. تركوني وشأني .. لكن احدهم غالبه الضحك اثناء مغادرتي .. اعجبته العبارة .. اخذ يمجرد " بيعك تفريط .. يام قشاشيط " .. شاركته انا الاخر .. وتحولت جلسة التحقيق المطولة الى نهاية ساخرة .. وعجة تمجريد .

شهر ابريل ، وفي هذا البراح الصحراوي المتجهم ، والأرض القفر ، ترتفع درجة حرارة المناخ الى معدلات لا تطاق ، اربعون درجة مئوية ، ومتوقع ان تصل الى 48 درجة مئوية مع اشتداد قيظ الصيف الحارق .. لا تزال اوقات الصباح الباكر تحمل طراوة ناعمة ، وفي سعات الليل المتأخرة يمكنك ان تستمتع باعتدال الطقس ، وبتأمل لوحة السماء ، الليالي المظلمة تتلألأ النجوم الفضية ، وتواشيح درب التبانة ، لترسم صفحة ربانية حالمة ، رائعة الجمال .. وفي الليالي القمرية جمال اخآذ من نوع اخر ، يقدح القريحة لنسج قصيدة ، او مقطوعة نثرية فريدة ، في مناجاة الصحراء والقمر وسحر الكون والفضاء .

وحيدا ضائعا وسط الليل .. تراني أؤجل الوداع !! .. ومضة تعبر وتختفي .. جلبات غير مفهومة ، يختلط بعضها ببعض .. اشعر بوخز في خاصرتي ، يصعد الى حنجرتي .. اتأمل المكان ، قاعدة السارة ، او معطن السارة نقطة عبور القوافل العابرة للصحراء ، من الجنوب الى الشمال نحو واحات الكفرة ، جالو اوجله ، اجخره ، ا اجدابيا ، الى عموم برقة بالاراضي الليبية . وجنوبا نحو واحات " فادا"، " ابشه" ، " ازوار" ، " فايا لارجو" بالاراضي التشادية ، كان ذلك في زمن الامن والسلام ، والمودة تجمع الشعبين الشقيقين .

اتأمل اليوم كيف بات معطن السارة بفعل الزمن وتوالي الايام .. بالأمس نقطة ارتواء .. وصل وتواصل .. نجدة للملهوف .. هوس السلطان احالها بقعة لترسانة حربية مجحفلة بكل ادوات القتل ، دبابات ، طائرات قاذفة ، دشم ذخيرة لا حدود لها ، مطار مجهز بمدرج وصالة تمنيت لو ان مطار بنينة ببنغازي العاصمة الثانية مثله ، او ان صالة السفر والانتظار هناك بنيت على شاكلة هذه ، هناك تكاد تصل مقصورة الطائرة وأنت تتمنى ان تعود ، او ان لا تكرر الرحلة ثانية ، مكاثفة ونزق ، وهرج وعرق .

اصبحت اعتاد الحياة هنا مع مرور الوقت ، افضل ان انتحي جانبا نحو المزرعة في الصباح ، لون البساط الاخضر وسط مكان مقفر يبعث في النفس الامل ، ونشوى الحياة .

في غالب الاحيان استقل السيارة التيوتا واقضي اوقات ممتعة بالمزرعة ، خصوصا وأنني تعرفت على المشرف هناك ، وهو الاخر جنوبي من واحة اشكده ، وفي لقائي الاول به سألته عن الرائد محمود الزروق . قال لي انه في وادي الدوم ، ولا اعلم عنه اكثر من ذلك ، احترت هل افضي له بوفاته .. تراجعت ، لا داعي لان اعكر له صفوه .. يكفي ما هو فيه ، غدا يعود الى قريته ويعرف .

الناس هنا في عزلة تامة عن اخبار العالم ، وما يجري بالمحيط ، وإذا تحدث احد الضباط بمعلومة ما ، تتلقفها الالسن وتنتشر كالنار في الهشيم .. لكنني وجدت ضالتي في راديوا السيارة ، من النوع الجيد ويستقطب موجات بعيدة المدى ، في الليل بالذات ، انصت الى اخبار العالم عبر اذاعات محددة تصل بوضوح ، هنا لندن ، اذاعة الكويت ، صوت العرب ، الشرق الاوسط .. اشعر بأنني على تواصل مع العالم وجزء منه .

الاتصالات الهاتفية غير متوفرة ، وعند الضرورة يسمح للجنود بالتواصل لدقائق محدودة عبر هاتف لاسلكي على مقربة من مركز الاتصالات .. لكنني بالأمس عندما زرت المركز ، واطلعت على محتوياته من الداخل بمعرفة الجندي القائم بالأعمال هناك - تعرفت عليه اثناء تردده على العيادة - هالني حجم التجهيزات القريبة منا ولا علم لنا بها ، شاشات ومحطات فضائية عالمية ، تواصل عبر الاقمار الصناعية ، هواتف واتصالات سريعة ، سألته : لما لا يتركوا لهؤلاء الجنود المتخمين بالجراح فرص الاتصال بذويهم ، ابتسم وقال : يمكنهم ذلك ، لكن لا توجد اوامر تسمح ، فقط الهاتف الذي في الخارج لسعات محدودة ، وللضرورة ، على ان تكون المكالمة قصيرة وللغرض المذكور سلفا .. وكما تعرف ، كل شيء مراقب هنا .. لكن بالنسبة لك ، متى اردت الاتصال اهلا بك .

- شكرا اخي .. (ما تقصر) .. ولكن هل سأتحدث دون مراقبة وتسجيل ؟

- تحدث كما تريد دون تحفظ ، لن يراقبك احد !!

قلت في نفسي.. " ايه عندي منه "!!

- 17 -

الثلاثاء 14 ابريل 1987 م ، توافد على العيادة المزيد من الجنود الذين ضلوا طريقهم اثناء الهروب من معركة " وادي الدوم" الخاسرة .. سقطت قاعدة وادي الدوم الضخمة والمسيجة بكل الوان الحماية في ايدي القوات التشادية يوم 18 مارس 1987 م .. وهؤلاء وصلوا الان بعد مضي اكثر من شهر .. اين كانوا طوال كل هذه الفترة ، انهم تائهون في الصحراء ، اضناهم العطش والجوع ، ومن وصل هم القلة القليلة ، اما البقية فقد التهمتهم زواريب الصحراء .

كان من بينهم جندي يعاني حالة جفاف شديد جداً ، قارب على الموت ، قطع مئات الكيلومترات راجلا حافي القدمين ، في حالة اغماء تام ، ولا ادري من انقذه كي يصل الى هنا .

تيبس لسانه ، عينيه زائغتين ، علت جبينه تجاعيد العطش ، ملامح مغبرة ، وغير قادر على الكلام .. بدأت في معالجته ومحاولة انعاشه ، قطرات من الماء ، وجدت صعوبة في اعطائه حقنة بالوريد ، الاوردة غابت وطمرت تحت جلد اشعت اضناه الجفاف ، اضطررت لإجراء جراحة صغيرة بحثا عن وريد لحقنه بالسوائل ، كنت اعالجه وانتظر لحظة فراقه ، وضعته تحت المراقبة ، وخشيت ان يكون اصيب بفشل كلوي ، حتى بعدما تمكنت من حقنه بالسوائل لم ينضح الجسد اي قطرة بول .. انتظرت لساعات وساعات ، والمجموعة المساعدة هي الاخرى لم تتوانى في بدل ما يمكن لإعادته الى حالة الوعي .

الوقت يمضي ولا نرى انفراج ، الى ان جاءني بنينه يبشرني بخبر نزول اول قطرات للبول ، لونها احمر قاني ، تأملت خيرا .. رويدا رويدا بدأ يستعيد وعيه ، ارجله تورمت وتقرحت وباتت وكأنها تعرضت للحرق بالنار ، احتاجت مني هي الاخرى مزيد من العناية والمعالجة .

عندما استعاد وعيه ، ووجدنا نتحلق حوله ونعتني به ، بدأ يحدثنا بنبرة متقطعة عن ما حدث معه .. كان احد المكلفين بحراسة الناحية الشمالية للقاعدة ، انقطعت بهم الاتصالات مع غرفة العمليات ، تاهوا بالصحراء ، وتقطعت بهم الاسباب ، لكن لا يزال في العمر حياة .

يا الهي .. كم من الجنود والضباط الليبيين الذين قضوا من العطش في هذه الصحراء الجرداء القاحلة !! .. وكم منهم قضوا نحبهم بعدما يبست أبدانهم وجفت عروقهم ؟!!.

قبل موعد الغذاء ، حضر عسكري مكلف من قبل العقيد النعاس ، ابلغني ان العقيد يدعوني لتناول وجبة الغداء سويا ، وانه سيمر بنفسه لاصطحابي معه .. وبالفعل كان في الموعد ، اصطحبني الى بهو الضباط ، وفي طريقنا الى هناك يسألني عن اخباري وسير العمل بالعيادة ، طمأنته بأننا نبدل قصار جهدنا ، وبتعاون المجموعة ، وأننا تمكنا من معالجة حالات عدة متنوعة الاوجاع والإصابات ، وأحلنا حالتين الى طرابلس لتعذر علاجها هنا ، وتمت الموافقة على الاحالة .

اعاد السؤال : ما نوع الحالات الاكثر بؤسا ؟!..

ترددت في وصف الحالات القادمة من وادي الدوم ، لكنه شعر بتلكئي فأوعز لي بالقول : احكي يا دكتور وصارحني .

- قلت له .. ان الحالات القادمة من هناك تدعو للشفقة والعجب ، كيف لا يجدوا من ينقذهم في هجير الصحراء هذه ، يأتون الينا في الرمق الاخير من الحياة ، ولابد ان غيرهم كثير لم يستطع الوصول .

- نعم هذا صحيح ، وانه لمما يؤسف له ان نرى الجيش ينهار الى هذا الحد ، المعنويات هي الاخرى منهارة الى ابعد حد .. للأسف دمر الجيش عن قصد ، لعبة سياسة قذرة تريد ان تبقي فقط على الكتائب الامنية الحامية لكرسي العرش ، وتبعد شبح الانقلاب عليه .. صدق او لا تصدق يا دكتور .. اليوم ضابط صف برتبة عريف اوامره نافذة اكثر من ضابط برتبة عقيد ، لمجرد انه ينتمي الى وحدة امنية وموثوق الجانب .. لا احد من الضباط راض عن هذه النهايات البائسة ، ولا احد يمكنه التلفظ بكلمة رفض .. دمر الجيش .. دمر الجيش .. يكررها مرارا .. لا اعداد ، ولا تدريب وتأهيل ، ومعظم من تراهم هنا هم مجندون قسرا تحت مسمى " التجيش " ، لا خبرة لهم بالحرب والقتال ، وثم الزج بهم في حرب خاسرة ، وفي مواجهة غير متكافئة تدعمها فرنسا وامريكيا ومصر .

دعنا من هذا .. اردت اليوم ان نلتقي ونتناول وجبة الغذاء سويا ، وأود ان اخطرك بأنني سأذهب في مأمورية اعتبارا من يوم الغد ، وان العقيد مفتاح سيتولى مهمة امر القاعدة .. لا اريدك ان تخشى رعونته ، ولا ان تخاف منه .

كان لصدى كلماته وقع الصاعقة ، فما عسى ما تحمله لي الايام القادمة ، هل سيتناسى ذلك الموقف ويغفر لي زلة لساني ؟!!

وصلنا البهو ، يعج بمختلف الرتب ، رواد ، نقباء ، مقدمين ، الخ .. ويبدو ان الجميع كانوا بانتظاره ، وهناك جرى تبادل اطراف الحديث في العموميات بعيدا عن السياسة وأوضاع الجيش والحرب ، شعرت ان الدعوة للغذاء في جزء كبير منها ، اريد لها اذابة جليد العلاقة بيني والعقيد مفتاح ، عرفني به ثانية ، وطلب مني ان ابارك له المهمة وأدعو له بالتوفيق . وبدوري لاطفته كما ينبغي .

اصر العقيد محمد على ان يوصلني بنفسه الى العيادة ، وفي لحظة الوداع بيننا همس لي بكلمة اخيرة .. " كلام السيارة يبقى بالسيارة **!!** " .. اجبته : اطمئن .

الفترة المسائية .. ما ان جلست على كرسي المعالجة ، دخل مريض متقدم في السن ، تجاوز الخمسين ، يطبق يداه على خاصرته ، يصرخ ويتلوى من شدة الألم **!!**.. انقذني يا دكتور .. خمنت انه يعاني أعراض حصوة بالحالب ، ساندته في الجلوس ، ثم نقلته الى سرير الفحص . حاولت ان اعرف منه شيء عن تاريخ الحالة ، وعن حساسية من ادوية معينة في السابق ، وأسئلة مختلفة عن الشعور بصداع ، ومركز الالم ، ولون البول والبراز .. الخ .. ثم اعطيته حقنة مهدئة للألم .

عندما شعر بالارتياح ، اسهب في الحديث عن الظروف التي اتت به الى هنا ، تبين انه متزوج ويعول ثمانية اطفال ، وانه من واحة مزدة .. " راس الطبل " .. دخل الجيش قسرا ضمن برنامج التجنيش الإجباري ، ومنذ اكثر من ستة اشهر لا يعلم عن عائلة اي شيء ، وعن اشتياقه لرؤية ابنائه ، لتحري احوالهم المعيشية ، ومدى متابعتهم للدراسة ، وأغنامه التي تركها وما آلت اليه ، وختم حديثه بزفرة طويلة النفس ، عميقة الالم .. وانه لم يعد قادرا على مواكبة اعمال الجيش ، وطلب مساندتي له في الحصول على اجازة مرضية وان لفترة وجيزة . وأسر لي بأمر اخر يشغله ، يخص العائلة ، وعدته انني لن أبوح به !!

الشيب طفا على الوجه والرأس ، وقسوة الزمن ونوائب الدهر حفرت تجاعيد وأخاديد .. !! رثيت لحاله ، ومنحته اجازة مرضية لمدة شهر ، وما ان ابلغته بذلك ، ارتسمت على محياة البهجة والسرور ، وهم يشكرني على تفهم وضعه ، ويدعو لي بالتوفيق وتحقق الاماني مستقبلا .. جرت عينيه بدموع الاسى ، وختم قوله : " الحمد لله بعد ست شهور من الالم وجدت من يستمع لشكواي ! " .

أتممت أوراق التحويل ، وحملتها بنفسي الى العقيد محمد العباس للتوقيع قبل سفرة .. وثم ذلك .

- 18 -

الأربعاء 15 ابريل 1987 م ، انصت الى اذاعة " صوت الوطن العربي " .. المذيع عبدالحميد يرغي ويزبد في مناسبة الذكرى الاولى لتلقين القوى الامبريالية العظمى درسا لن تنساه ، يوم ان اغارت الطائرات الامريكية على بيت القائد الرمز المغوار ، وفرت دون ان تتمكن من انقاد جثمان احد طياريها ، وقد تمكنت قوات الدفاع الجوي الباسلة من اسقاط الطائرة ، وأصبحت ليبيا هي العظمى ، وسحب لقب العظمى من تلك الدولة المغامرة المسماة امريكيا ، بعدما جرجرت اذيال الهزيمة على ضفاف المتوسط .. توالى برقيات التهاني والتأييد من كل انحاء الجماهيرية العظمى ، تهلل وتبايع صانع النصر المبين على قوى البغي والطغيان .. وكيف ان سبعة وسبعين طائرة لم تنال من شموخه وعزته .. انصت اليه بإمعان وأقول .. نحن في قاعدة السارة الشموخ نستقبل رفات وادي الدوم .

المذيع ذاته الذي عهدناه في تلك الليلة يستنجد بكل من حولنا ، وبالمناضلين في كافة انحاء المعمورة .. الوقوف الى جانب الشعب الليبي في صموده .. يا طياري مصر الكنانة .. يا طياري موريتانيا .. يا طياري ارتيريا والصومال .. يا طياري العراق .. هلموا الى قلعة النضال .

كان للاحتفال بهذه الذكرى وتضخيم الحدث طعم البؤس المزري ، وأنا اری شواهد الانكسارات والهزائم المتوالية ، واستمع عن قرب لضحايا " وادي الدوم" ، وشهاداتهم عن السقوط المدوي المريع ، وتمريغ انف جيش مجفل جرار على ايدي حفنة من القوات التشادية لا تملك سوى اسلحة خفيفة ، وسيارات " تيوتا " صحراوية غنمت من قواتنا المنسحبة .

ما كان يجهله ذلك المذيع الذي يكرر نفسه الليلة ، انني كنت شاهدا عيان في تلك الليلة 15 ابريل 1986 م .. طبيب امتياز مناوب في مستشفى 7 أكتوبر بمدينة بنغازي ، بل وقبلها في ذروة التصعيد والمواجهة مع الإمبريالية العالمية متمثلة في زعيمتها أمريكا ، وعن خط الموت 32 ميل بحري ، وخليج التحدي ، وصقور سلاح الجوي الليبي وقد تصدوا لمناورات الأسطول السادس الامريكي ، مادة إخبارية للهضم والاجترار .

في تلك الليلة ، تابعت من غرفة الاطباء موجز آخر الأخبار ، يحمل خبر اجتماع حول ليبيا عقده الرئيس الامريكي ريغان مع مستشاريه في منتجع نهاية الأسبوع " كامب ديفيد " سيء الصيت !! ، وبالمقابل ، وعلى غرار الاجتماع نفسه ، خرج القائد الرمز من خيمة نصبت بإحدى الخلوات .. وصرح بأن خطة المواجهة تم اعتمادها ، وان الأمور على ما يرام ، الموقف تحت السيطرة .

في الليلة ذاتها ، حضر مدرس مصري ، تخصص لغة انجليزية ، لقد ألغي ادراجها بالمناهج المدرسية ، يشكو اعراض ارتفاع ضغط الدم ، وفي شيء منه بسبب إنهاء عقده ، وقد حانت لحظة العودة الى ام الدنيا .. ما لم يكن عمل حسابه له .. وفي اثناء معالجته دوى صوت طيران حربي يجوب الاجواء ، ولم تمضي سوى ثواني وأعقبه صوت انفجار قوي ، هرعت على عجل الى اعلى الدور الثاني للمستشفى ، عبرت طائرتان على ارتفاع منخفض جداً جداً ، قادمة من ناحية البحر ، ومتجهة نحو المدينة .. التفت يمينا ناحية جامعة قار يونس ، كنت اعلم ان قاعدة صواريخ تقع في طرفها ، شاهدت لهب صاروخ يصطدم بالهدف .. التفت يسارا ، وهج احمر يخترق عنان السماء ويضيء المدينة .

مشاعر الغضب ضد أمريكا وسياستها وهي تعتدي على الوطن كانت العنوان ، ولا يمكن القبول بهذا الاعتداء الصارخ على مدينة هانئة منتصف الليل ، وفزع الامنيين بهذه الرعونة المفرطة ، تحت اي مبرر .

كل المرضى نزلاء المستشفى ، والعاملين المناوبين فزعوا من شدة اصوات الانفجارات ، جميعهم يتساءل ما الذي يجري ، وبعد حوالى نصف ساعة انقطع التيار الكهربائي عن المدينة بمجملها .. عم الظلام ، وغابت الاجابات .. اصوات جنود يهرعون راجلين نحو القاعدة البحرية المجاورة للمستشفى .. في غرفة

الاطباء ادرت موجات الراديو اتحرى الحدث الجلل ، صوت الوطن العربي انغام موسيقى هادئة ، وفجأة يقطع الارسال الموسيقي ، ويصدح المذيع فزعا وحماس ، يعلن عن عدوان امريكي غادر على مدينة طرابلس يستهدف المدنيين ، لم يأتي على ذكر بنغازي .. ادركت ان الارتباك سيد الموقف ، وان لا علم لمن يحكموننا بما يجري في غير ضواحي حجرات البث .

اتصلت بكتيبة دفاع جوي في سبها ، آمرها احد أقاربي ، لأجدهم يغطون في سبات عميق ، وبعد انتظار تحدثت مع احد الضباط الذي يعرفني ، سألته عن ما يجري ، اجابني بصوت هامس ، لا اعلم ، وتبين انه نائم بمنزله !! .. يا الهي ، عن اي خطة مواجهة اعتمدت تتحدثون ؟! . قلت له اجواء البلد تنتهك وانتم نائمون .

- سئمنا حالة الطوارئ التي نعيشها منذ اعوام ، ولم تنتهي ، ولا بلاغ لدينا من غرفة العمليات !!! .

- الأمريكان يقصفون بنغازي وطرابلس يا أفندي .

- باللهي صحيح ؟!!.

خشيت ان يتهم ابن عمي بالتقصير ، ولم اجد طريقة للتواصل معه ، اتصلت بوالدي وأخبرته بما يجري في بنغازي ، وطلبت منه ان يبلغ ابن عمي القاطن قريبا منا ، وآمر رحبة الدفاع الجوي ، وذلك ما فعل .

بعد حوالى الساعة وصلت سيارة إسعاف " بيجو 504 " الى المستشفى ، يطلبون اصطحاب أطباء الى قاعدة بنينه التي استهدفها القصف ، رافقتهم على الفور الى هناك .

في الطريق الى القاعدة ، الظلام يخيم على المدينة وشوارعها ، شاهدت العديد من حوادث المرور والناس ، حالة من الذعر عمت المكان ، السيارات تتحرك مطفأة الانوار حسب الارشادات .. عند البوابة ضابط برتبة رائد يحمل بندقية " كلاشنكوف" ، برفقته عدد من الجنود ، سمحوا لنا بالدخول ، ناحية العيادة ، او ما يشبه العيادة . لم نكن في حاجة للدخول الى مبنى العيادة ، الابتعاد عن المباني فرض الانتشار بين الأشجار ، جرحى يتألمون ، وطاقم تمريض ليس بحوزتهم سوى القليل من الأدوية لا تكاد تذكر ، سوائل ومحاليل تغذية وريدية ، وأدوات بدائية .. الخوف يسيطر على الجميع ، سمعت احدهم يقول .. الامريكان قاموا بإنزال مظلي في الطرف الاخر من القاعدة ، ولا اعلم من اين اتي بهذه المعلومة ، وكيف تصنع الاشاعات لحظات الذعر الفظيع .

معظم المصابين من القصف ثم نقلهم خارج القاعدة ، وما بقي اشلاء وأوصال متقطعة لرفات بشر ، مشهد مرعب تتفطر له القلوب ، بقايا لحم آدمي محترق ، مغطي بالتراب والقش و خشاش الارض .. ووجوه ساهمة لا تعي ما تفعل .

معظم الجنود كانوا بغير سلاح ، يحاولون الفرار خارج اسوار القاعدة ، وحراسات البوابة يمنعونهم ، أهذه هي استعدادات التصدي للقوة الإمبريالية التي نتوعدها بالويل والثبور صباح مساء ؟!!

دوت صفارات الإنذار ، تنبئ باحتمال وقوع غارة جوية اخرى على القاعدة ، أخد الجنود وضع الانبطاح على الارض ، قمت بالشيء نفسه ، وظللنا على هذا الحال نفترش التراب لزمن ، كنت انتظر شظية تخترق جسدي ، التصقت بالأرض اكثر فأكثر ، .. وكأني بذلك سأنجو منها ؟!.

عسكري بجانبي صرخ يعنف فتاة مجندة تفترش الارض مثلنا ، تبكي وتولول : " يا نا عليّ يا اميمتي .. يا نا عليّ يا اميمتي" .. يزجرها .. " وانت ايش جابك هانياهي ؟!!... نعم ما الذي اتى بك الى هنا .. انه العبث .

استمر الحال مدة الساعة تقريبا ، نفترش الارض حينا ، والقرفصاء احايين اخرى ، الى ان طلب مني مرافقة ضابط برتبة مقدم الى مستشفى الجلاء ، كان

من الجيش السوري او سرب سوريا . في الطريق حدثني بأن فريقه يتكون من خمس وثلاثين عسكري ، وانه يفتقد اثنان ، ويود ان يبحث عنهم بالمستشفى ، وان يعرف ما اذا هم ضمن الجرحى او الشهداء ؟.

الوقت الان فجرا ، المستشفى في حالة من الهرج والمرج والفوضى الخلاقة ، بعض الاطباء والممرضين ، وعدد من طلبة كلية الطب ، التحقوا بمهامهم من تلقاء انفسهم .. الاستاذ الدكتور عبدالرازق الزواوي (رحمه الله) رئيس أقسام الجراحة يحاول ضبط الايقاع . الممرات ممتلئة بالناس والمعالجين .. صراخ وفوضى عارمة . وعند ثلاجة الموتى .. أشلاء أطفال ، نساء ، شيوخ ، وبعض الشباب العسكريين .. آه يا أمريكا.

اخيرا وجدنا المفقودين من السرب السوري بقسم الجراحة .. وعلى الفور أبلغ المقدم قيادته في دمشق احوال جنوده وضباطه .

وسط " هردميسه " بمعنى الكلمة ، غابت القيادة الرشيدة لحظات الازمة .. حل الفزع والفراغ وترقب المستقبل المجهول ، لا معلومات عن سلامة القيادة ، تتوالى الاخبار عن اقدام البعض بتمزيق ملفاتهم بمقار مثابات اللجان الثورية .. الناس تغادر المدينة اسراب ، نزوح للعائلات نحو مرتفعات الرجمة .

اخيرا .. اذيع بيان يبلغ العالم عن سلامة القيادة ، وانتصار ليبيا على قوى البغي والعدوان ، وإسقاط احدى الطائرات الامريكية الغازية .. ثم توالت البلاغات عن اعداد الضحايا ، وصور الجثث ، والدمار .

انتصرنا وألحقنا الهزيمة بأقوى وأشرس قوى على ظهر الكوكب .. ومنذ تاريخ اليوم ، اصبحت ليبيا العظمى ، والحق باسمها لقب " العظمى " قاهرة الجبابرة والطواغيت .. " مسرحية ضيعة تشرين .. ترينا منتصرين ونحنا ما ندري " .

اين هذا من ذاك ، رواد العيادة من ابناء العظمى فروا حفاة عراة ، تركوا وادي الدوم ووادي الناموس ورائهم .. وجثث الالاف من رفاقهم .. منهم من قضى نحبه في اتون صحراء جرداء ولم يجد من يسعفه ، ومنهم من وصل بعد لآي ، وان شفيت جروحه الجسدية ، الاثار النفسية تحاصره . " عظمى " .. رحم الله عبدالله القصيمي " العرب ظاهرة صوتية ".

- 19 -

غادر العقيد العباس ، وها هي بوادر اول يوم يتولى فيه العقيد مفتاح مهمة آمر القاعدة تطفو على السطح ، رفض اول حالة مرضية تعرض عليه من قبلي لغرض احالتها الى طرابلس .. ويبدو ان محاولة اذابة الجليد بالأمس لم تعطي مفعولها .. شعرت بالامتعاض والتوجس من تصرفه ، لكنه هنا صاحب الامر والنهي ، والقرار الاخير ، وترأى لي ان لا احمل الامور اكثر مما قد تحتمل .

بنية انيس لحظة الوحشة والتفكر الذي لا طائل من ورائه ، وكلما ضاقت النفس بأمر ما عكر صفوها ، اجد في الفضفضة اليه تخفيف وطأة الثقل .. اعتبر الامر لا يستحق الاهتمام ، قمت بما ينبغي يا كتور ، ورفعت المسؤولية عن كاهلك .

مع سكون ليل الصحراء .. الكبانية على موعد هذه الليلة في لمة سمر " غيطه " .. شطح وتمجريد :

" كبانية قلال الوالي .. مو غايب منهم لا والي " .. هيبيي

" غير الوقت عليه اتكى .. لا ما في طبعه يشكى " هيبيي

" بنينه ياللي تراجي فيه .. خسارة لو فرطي فيه " هيبيي

" نحنا الهربه ماهي لينا .. غرو بيك وغر بينا " هيييه

" بنينه والمرهون يراجو .. اجعنهم كيف اليوم تلاقوا "

هيييييييييييييي

غيطه مرحة تشدو بعبارات مؤازرة لرفيقهم بنينه الذي طال انتظاره لموعد الزواج .

انتهت الغيطه .. انتحيت جانبا وبنينه في خلوة .. براح الصحراء الممتد ، سكون الليل خيم على المكان ، وجادت ذاكرة بنينه تشاكي الايام والدهر .

- فضفض يا بنينه " سرك في بير " .

- يا دكتور تعبنا ، وملينا ، العمر يمضي ، انتظار الذي لا يأتي ابدا ، هذه ليبيا التعيسة ، وقدر جيلنا المنكوب .. الفقر والعوز ينهش اطرافنا واكبادنا ، تعبنا من شعارات شد الحزام ، وبالخبزه والماء قررنا الحياة ، وأخرها تجنيد قسري ومرتب 200 دينار بالكاد يكفي مصاريف الاسبوع الاول من الشهر .." اسحق ما تلحق" !!. وفي العادة ديون تنتظر .

منذ عام 1977 م وصدور كتيب تقشف الشعب وثراء الحكومة والحاشية ، بدأت المعاناة .. انتهى الحديث عن خطط التنمية الخماسية ، والثلاثية ، وتجمد

حال الاقتصاد والناس ، حتى تلك المشاريع التنموية التي شطح بها وقيل انها رصيد المستقبل نهبت وماتت ، احتكرت الدولة كل شيء ، مداهمات القطاع الخاص ، واسطوانة اوكار الاستغلال ، وزحف المنتجين ، الغفير اصبح مدير المؤسسة ، استنزفت الميزانيات ، وتوقف نبض الحياة بالبلاد .. خيم الرعب وفقد الامان .

ترعرعت في مدينة " الابيار" ، كانت ظروف الاسرة الحياتية بالكاد تحبوا ، لكن القناعة اغنتنا عن الكثير ، ارعى غنمي ، استمتع بعبير الحرية في البراري ، حتى نكبنا بالتجنيد ، والتدريب العسكري العام ، والشعب المسلح ، وتاهت القيادة والناس وراء اوهام العظمة وغزو العالم ، وعصر الجماهير يبشر بانبلاج الهم والغم .. لا مركوب ، ولا سكن ، والفكر في الزواج اخر الآمال .. اسواق عامة وطوابير تنتظر على ابوابها ، الثلاجة بالواسطة ، قطعة فرش ، غاز الطهي ، دولاب مطبخ حقير ، كل شيء ، كل شيء ، معارف ووساطات ، استشرى الفساد ، وفي موسم الجرد تحرق الاسواق .. كل الناس موظفون بالدولة ، وقانون 15 للمرتبات يسري على رقادة لارياح ، ويستثني الحاشية .. تقف في صدارة منشأة عامة ، طوابير ومكاثفة ، وعندما يشتد التزاحم ، انت وحظك ، يرمى لك بكيس مجهول ، قد يكون نصيبك في الكيس : سروال طفل ، وفستان ماركة يومين واحذف ، وعلب طماطم ، وكيس حلبه ، حسب المتوفر ، السعر

موحد .. " ويقولك خود وإلا خلي ؟!! .. تصدق يا دكتور ، " تجري لين يبطلن كرعيك ، على شان عقاب ثلاجة ، وإلا عالة شاهي .. خبر ما يتصدق بلكل .. بلكل بلكل " .. وعلى لسان الناس : " الدولة منين يواتيك أنتش .. رزق حكومة ربي يدومه " .

اليوم كما ترى .. الشباب اما عسكري بالجيش ، او بطال يبحث عن فرصة عمل ولا يجد ، يتأبط ملفه ، من مكتب الى مكتب ، ومن امانة الى امانة .. راجعنا اخر الشهر .. اخر العام .. اخر العمر .. ومن هم كحالتي في صحارى تشاد .. ينتظر النهاية .. وإذا مات ، كلب ومات ، لا احد يعلم به ، ولا سؤال عنه ، ولا عن عائلته .. ضاعت قيمة الانسان في هذا البلد الموبوء بالغطرسة الكرتونية .. هل سمعت بذكر احد من رفاقنا الذين التهمهم سافي رمال تشاد .. في بردي ، ازوار ، فادا ، فايا ، وادي الدوم ، اوجنقا .. الخ ؟ ابدا .. ولا تسل عن المليارات التي هدرت في هذه الحرب اللعينة ، ومثلها اخريات .. يتعاطف مع نيكارجوا .. ويترك المواطن ابن البلد يقطن اكواخ الصفيح في الهضبة طرابلس ، وسيدي يونس ببنغازي ، والخرايق وبقية قرى فزان .. " مضروبه بعصا وحدة " .. يقولوا هلنا : " الحره اول ما تزرب ، تزرب بيتها " .. لكن هيهات .

مسامرات اخر الليل ، وحكاوي بنينة ، اصبحت جزء من الروتين اليومي ، وكيفما ادرت الحديث ستجد له رؤية ومقال .. وبعيدا عن قرف السياسة والحرب ، " الصوب والغلأ " .. الوجد والعشق ومناجاة الحبيب .. يتذكر بنينة " مريم " الحبيبة والخطيبة ، هل لا تزال على عهدها ، ام يصدق عليها ما تغنت به الفنانة الليبية تونس مفتاح ؟!! :

خــلاص أنسيتك يالبعيد .. أنظارى دارن صوب جديد

راجن واجد راجنك .. سّمار الليل يناجنك

ولاحتى كلمه جت منك .. تما يزيد جفاك اتقول شقاى أتريد

لنظار عليك أيعدن .. سيات أكثار ومابدن

ولافى يوم السيه ردن .. ولابا ايفيد عليك ملام ولا تعديد

تغنى بها بنينة ، ورافقته الطرق على صحن المنيوم ، وترديد شجوه المتدفق من الاعماق ، توقف برهة .. يا دكتور : " خوذ مني الكلام .. ان شاء الله انا عازمك للعرس .. انت وجميع رفاقك في مستشفى بنغازي .. كلهم .. ما تعقبش منهم حد " .

الله الله يا زمان .. في الماضي كان الشاب بمجرد بلوغه سن الحلم ، يتزوج .. تجاوزنا الثلاثين والأمل في الزواج رهين الف عقبة .. من تدبير المسكن ولوازم مهرجان الفرح ، الى لحظة الخلاص من هذه العزلة القاتلة ، والترقب في احضان صحراء عارية .. هل تعتقد ان مريم لا تزال تنتظرني ؟!! .. ام صدق عليها شجو المغنية .. نسيتك يا البعيد ؟ !! .. مضى اكثر من خمسة اشهر ولم ارى مريم .. اتكون نسيت ودنا ، ووجدت صوب جديد ؟

- لا تقل هذا بنينة .. مريم بنت الاصول .. الحسب والنسب .. المعدن النبيل .. تنتظرك .. وستنتظر .. اترك عنك هذه الوساوس .

- اخشى ان يزف لها خبر موتي وهي تنتظر .. حسرة .. وحسرات .

استمر يردد الاغنية ذاتها .. الكلمات ذاتها .. الغربة والبعد في المعنى فجر لديه شجون وشجون .. تذكرت اغنية لفنانة ليبية اخرى ، " خيرية الغرياني " .. لقيت انتشارا واسعا .. مزجتها ضمن جوقته الغنائية .. وقد راقت له هي الاخرى .. ابتسم وهو يشدو .. " بلسم .. جت على الجرح يا دكتور " .. تقول كلماتها :

واجب علينا نصبروا يا عيني .. ولا تعاندي مولاك لا تشقيني

الصبر لازم منه .. ويا انظار عمر الوقت ما تلومنه

لا اتلومنه ربى حكم يا عين

والحكم دوم ارضنه .. بلك الزمان يروف ويهنيني

يفكر بمهرجان الزواج .. يحلم وقد تحلق به ابنائه .. وهم في طريقهم الى المدرسة ، منهم المهندس ، والاخر طبيب .. عدا الجيش .. " الجيش لا يادكتور .. انا خذيت حصتهم وزيادة " .. الابن الاكبر سيحمل اسم محمود تيمنا بالرفيق المرحوم محمود الزروق ضحية وادي الناموس .. يا الله .. طفل من بنغازي لم يرى الحياة بعد .. يحمل اسم ضابط من الجنوب .. يا لوفاء الاهل والرفاق .. ليبيا ستبقى ليبيا .. الليبيين هم ذاتهم .. طباع اسلاف من عبروا .. وسيبقون كذلك مهما نخر العبث بهم وبتاريخهم .. بنينة لم يلتقي الرائد محمود .. لكن رواية جندي المخابرة المرافق له ، ونهايته المأساوية ظلت ماثلة في دهنه .

طال الليل والسمر .. وفي غمرة الانس لاحظنا اضواء سيارة تتجه نحونا .. هم بنينة باستطلاعها حال توقفها .. توقعنا حالة مرضية مستعجلة .. تبادل السائق وبنية تحية السلام بحرارة .. اهلا افندي .. مرحبتين .. كان ضابط خفر القاعدة النقيب عبدالسلام ، رحبنا بقدومه .. يقول انه لاحظ تواجدنا في هذا الوقت المتأخر .. واختار مشاركتنا السمر .

شاب بهي الطلة ، وافر الجسد ، وفي حديثة تبدو روح المغامرة تسكنه **!!** حديثه عن انخراطه في برنامج دعم حركات التحرر يشد الانتباه ، الى ان ذكر مشاركته في مساندة وتجهيز قوات التمرد جنوب السودان بقيادة الدكتور "جون قرنق " .. هنا فغر بنينه فاه .. ونالت الدهشة محياه .. ماذا ؟ .. جنوب السودان **!!** وصلتم الى هناك .. ما اطول خطاكم .. ماذا تريدون من اولئك العبيد المسيحيين في اقصى البقاع ؟

لم يرق لي استفهام بنينة وطريقة الفجة .. قاطعنه على الفور .. لا تقل هذا .. العبودية ليست بلون البشرة ، وإلحاقها بالبشرة الافريقية السوداء ناجم عن هزيمة افريقيا امام المستعمر الغربي الابيض ووحشيته ، لقد اقتادوا اهلها في اقفاص بعدما احتلوا ارضهم ، وسلبوا ارادتهم .. لا اكثر من ذلك .. كما انهم بشر مثلنا ، ادم عليه السلام اب البشرية جمعاء .. وحواء الام .. خلق الله في احسن صورة .

- اسف دكتور .. سماح .. كلمة وصدرت بلا قصد الاساءة لخلق الله .

بعد مرور عقود على تلك المسامرة ، اقرأ ما اعتبره الكاتب والسياسي السوداني محمد سعيد محمد الحسن اعتراف خطير .. كان قد التقى القذافي بطرابلس اعقاب توقيع مبادرة السلام السودانية 16 نوفمبر 1988م باديس ابابا بين السيد محمد عثمان الميرغني والعقيد جون قرنق ، ونقل اليه السيد الميرغني وبحضور

الدكتور حسين ابو صالح وأحمد سعد والشيخ ابو سبيب والخليفة كمبال فحوى الاتفاقية وأنها أمنت وحدة السودان ، وترتيبات لوقف الحرب المدمرة في الجنوب .. كان رد القذافي : " اعرف جيداً العقيد جون قرنق والتقيته مرار " .. وكانت المفاجأة التي اعتبرها تصريح خطير .. عندما اضاف : " انا اول من قدم اليه المساعدات بنوعيها المادي والعسكري " .

مؤخرا وبعد رحيل القذافي .. صرح الدكتور رياك مشار نائب رئيس جنوب السودان ، والنائب الأول في حزب الحركة الشعبية ، في لقاء مع صحيفة الشرق الأوسط .. إن أول مهمة كلفه بها قرنق كانت السفر إلى ليبيا للقاء رئيسها معمر القذافي عام 1984 ، وإن المهمة كانت لجلب السلاح للثوار الجدد ، حيث كان القذافي في نزاع مع الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري . ومنها بدأت رحلته التمرد المسلح . وولادة الجناح العسكري للحركة الشعبية لتحرير جنوب السودان الذي اوكل اليه مهمة قيادتها .

ادركنا خلال سرده لمحطات ومغامرات ليبيا بإفريقيا .. مدى تورط ليبيا فى المستنقع التشادي ، الحرب التي نخوضها اخذت منحى تصفية حسابات اقليمية ودولية ، دخلت من خلالها على الخط دول عديدة تريد ان تنتقم لمواقف سابقة .. فرنسا تعتبر تشاد منطقة نفوذ ولها قواعدها العسكرية هناك .. مصر لم تتناسى

حرب السلوم امساعد ، وطرد العمال ، وتردي العلاقات .. العراق تتذكر قصف بغداد بالصواريخ لأول مرة خلال الحرب العراقية الايرانية التي استمرت ثمان سنوات ، كانت الصواريخ - روسية الصنع - ليبية .. السعودية التي لا يتوانى القذافي في كل خطبه عن ازدراء حكامها ووصفهم بخنازير الجزيرة ، وحياتهم بالحياة الدودية ، وربما الاهم هو ذاك التناقض الايدولوجي بين الوهابية والعلمانية .. المغرب ترى في القذافي وقد غرز شوكة في ظهرها عندما دعم واسس لحركة البوليساريو المسلحة والولي الرويعي .. والسودان وخلفية خلق جناح مسلح بالجنوب لحركة العقيد جون قرنق المعارضة لنظام الحكم في الخرطوم .

اي مصير ينتظرنا هنا في قاعدة السارة ؟ بين فكي كماشة متعددة الانياب .. التفت بنينه نحوي .. يردد .. نصبروا ياعين .. صدقت .. الصبر لازم منه .. ربي حكم يا عين .

- 21 -

ازداد عدد المترددين على العيادة مع اقتراب حلول شهر رمضان ، اشم رائحة تمارض لدى الاغلبية ، ورغبة في الحصول على تحويل الى طرابلس او

بنغازي كما جرت العادة ، ومع تكرار رفض القيادة الجديدة لمعظم الاحالات التي قررتها ، اصبحت اتلكأ في منح تحويل واقتصر على من هو في وضع اكثر سوءا ، وبدا واضحا ان جميع من هم هنا لا يطيقون الاستمرار في البقاء ، وحالة من الضجر والقلق تحاصرهم ، وفي معنوياتهم قدر كبير من الشعور بالإحباط والتذمر .

حالة " مراد " .. من بين الحالات المرضية التي تستحق الاحالة الفورية ، عملت معه قدر جهدي للمعالجة ، لكنه بعد ان تعافى بقدر محدود ، عاد وانتكس ، يعاني طفح جلدي وتشققات مصحوبة بالتهابات حادة . والحاجة لعرضه على اخصائي امراض جلدية اصبحت ضرورة .. شعرت بالأسى والمرارة عندما رفضت اوراق احالته ، وهو الاخر شعر بتعاطفي معه عندما اعدت طلب احالته ، الحزن العميق يكتنفه ، جلس الى جانبي يستشيرني ما العمل ، وما كان مني سوى اعادة المحاولة ، تغيير الدواء ، عرفني بنفسه .. من مدينة زوارة يقطن بمنطقة السياحية طرابلس .. للأسف لم اجد سبيل لإحالته ، ومحاولاتي لم تكن مجدية لشفائه .

النقيب عبدالسلام مع توالي المؤانسات الليلة ، اصبح احد رواد العيادة ، لا بغرض المعالجة ، انما الصحبة التي جمعتنا مجددا .. وفي معظم الاحيان يأتي

في غير اوقات الدوام ، نتسلى ونتجاذب اطراف الحديث ، نتناول وجبة العشاء سويا ، وبنينة لا يخلف الميعاد ، في احيان مكرونه مبكبكة ، وفي أخرى شرموله .

في ذات الايام حضر رفقة ضابط آخر ، عرفني به . النقيب " عبرود " يشتكي الم في الظهر .. تبين بعد الفحص انها حالة التواء ، وصفت له مرهم ، ونصحته بالتدليك ما امكن .. كانت نظراته مريبة ، لم ارغب في التعرف عليه اكثر .. وما ان غادر العيادة سألت النقيب عبدالسلام : هل هو صديق لك ؟

- لا ابدا .. دكتور .. مجرد زميل ارثي لحاله ، كان من بين الناجين من كارثة وادي الدوم ، وعلمت انه يتوجع ولم يغادر الفراش منذ اكثر من اسبوعين ، اقترحت عليه المجيء للعيادة والفحص .

مع نهاية الدوام ، اقترح بنينة تناول الغذاء سويا ، وانه اعد " سليطه .. شرموله " .. اصطحبنا النقيب عبدالسلام الى حيث اقامتنا .. وأثناء خلوتنا امطرني بنينة بالسؤال : " ايش كان يدير هانياهي في العيادة .. الهايك هذا ؟.

- ماذ تقصد ؟

- سامحني دكتور .. وددت ان انقض عليه واطرده من العيادة !! . لولا توقير وجودكم .. هذا العبرود احد الذين فروا من وادي الدوم جريا على الاقدم ،

انقذه اثنين من الجنود ، وكانوا قد انقذوا قبله فتاة ليبية مجندة ، انهكهم المسير ، فقرروا المبيت ببراح الصحراء .. تركوا للفتاة النوم بالصندوق الخلفي للسيارة ، وكل اخد ناحية لينام على مقربة .. نومة ارق وتوجس الخطر في اي لحظة .. منتصف الليل ، احس احدهم بحركة مريبة ، لمح هذا العبرود وهو يقترب من السيارة .. الى لحظة الوثوب بهدوء حيث تنام المجندة .. فما كان منه إلا ان تناول بندقيته ، وأطلق النار بالقرب منه .. قفز للخلف ووقع على ظهره فزعا وهو يصرخ .. قال لهم .. كنت اود ان امنحها غطاء .. الجوء بارد .. في مثل تلك الظروف ، وفتاة ليبية استأنست بهم .. وبينما اخرون فزعوا لإنقاذها .. وإنقاذه .. سولت له نفسه اغتصابها .. كيف تريد مني ان احترمه او اوقره .

- حاضر دكتور .. لكن هذا " هايك "

- لا عليك بنينه .. انا الآن عرفت سبب شكواه ألم انزلاق في الظهر .. وقع من عن ظهر السيارة .

اخر الليل سمعنا هرج ومرج قريب منا .. خرجنا على عجل نستطلع الامر .. مجند يهرف بما لا يعي ، يشتم النظام ، السلطة من اعلى الهرم الى ادناه ، الجيش ، لعن القتلة .. والحظ التعيس الذي اتى به الى هذه البقعة السيئة الصيت .. وكل من وراء اشعال فتيل حرب تشاد .. ووصف الجميع بالخونة .

توقفت مذهولا امام ما ارى ، وظننت ان نهاية هذا المجند قد حانت الليلة .. لكن الرفاق عرفوا علته ، اهتموا بموارته ، ادخلوه للعيادة ، قدمت له بعض السوائل المنعشة بعدما ادركت انه مخمور ، هدأ روعه واستعاد وعيه .

سألته بملاطفة وحميمية : من اين لك بالخمر .. يا " كازي" ؟

- ولا يهمك يا دكتور ، جميل لك لن انساه .. وحصتك تصلك الى غاية العيادة . !!!

- ضحكت بقهقهة .. لم يسبق لي معاقرة الخمر .

- لا يا دكتور .. هذا صناعة محليه .. خدمه صح ..!!! .. وانتهى اللقاء .

المرجع بنينة يفسر الواقع المعاش .. هؤلاء يحتسون شراب من صنع ايديهم .. يطلقون عليه اسم " قرابه " .. واسم اخر " تاكيلا ".. انا الاخر لم يسبق لي تذوقها .

- صحيح انه مخمور وفاقد وعيه .. لكنني اشك انه فقده تماما .. ما نطق به من كلام يجري بمجمله على السنة الاخرون من ذوي رجاحة العقل هنا ، ولكن همسا .. ومن وراء حجاب .. اظن ان الخمر رفع عنه ذلك الحجاب .. حجاب الخوف من النهايات المرعبة .

- 22 -

الاخبار هذا اليوم غير سارة ، مكتب الامن لا يزال يتابع قضية اختفاء البندقية 12455 .. بنينة المتهم قلق ومنزعج للغاية ، يواجه تهم ، وينتظره مجلس عسكري لإعادة التحقيق ، لأجله اشعر بالقلق .. تهمة حيازة سلاح غير مرخص ، سياسية اكثر مما هي جنائية ، وإذا ما اظهرت التحقيقات تورط بنينة ، فهو امام قضيتين ، عقوبة كل واحدة منها تنتهي الى سجن غير محدد بمدة .. ربما قضاء بقية العمر وراء القضبان .

كان بنينة قد تحصل على وعد سابق من قبل رئيس عرفاء الوحدة منصور الترهوني ، لكنه على ما يبدو لم يستطع اتمام المهمة .

لم اجد بما اواسي بنينة في محنته ، اقترحت عليه الاعتراف وتسليم البندقية ، ففي مثل هذه الامور من الصعب طمرها .

اجابني بأنه لن يعترف ، وانه وجد فرصة واغتنمها ، والبندقية هي الآن في بنغازي وليست هنا .. مخبأة في مكان آمن وبعناية تامة .. واردف .. البلد كما ترى على قرن عفريت ، ولا ارى سوى نهايات دامية ، الاحتقان بلغ مداه ، والفشل الذريع اقتلع اطناب الدولة .. وانا لم اخبئ البندقية لمحاربتهم ، انما لحماية نفسي وعائلتي في اللحظة الحرجة .. الوقت غدار .. مع ان الامل في

رئيس العرفاء منصور ووعده لا يزال يطمئنني الى حد ما ، لكنه لم يبلغني بما وصل اليه ، وسأذهب اليه لأرى ما الذي يمكنه فعله قبل المثول امام المجلس العسكري .

لم يهنأ له بال ، ذهب الى المكتب الاداري وترك لمنصور وصية لدى احد الجنود يبلغه فيها انه في انتظاره بالعيادة مساءا .. وفي اوج حيرته طل منصور بالفعل .. علامات البهجة والسرور تعلو جبينه ، استقبله بنينة بحرارة ولهفة لمعرفة الجديد ، طمأنه في الحال ، لا تخشى المجلس العسكري ، القضية سيتم حفظها ، لقد قمت بما ينبغي كما وعدتك .

هلل بنينة فرحا ، وعانق منصور مرارا ، يشكره ويثني عليه ، يقفز حينا ، ويرقص حينا اخر ، يرفع يده الى الاعلى ، يفرد اصبعه السبابة ، يرمقني بنظرة باسمة ، وهمسة .. " نشهد بالله .. منصور بوها وكيالها " .

جلسنا سويا في الغرفة ، اشبه باحتفال ، بنينة وقد زاح حمل الكآبة عن صدره .. وطالما اصبحت جزء من السر الدفين ، سألت رئيس العرفاء عن الكيفية التي طمس بها الاثر .

- اجاب بزهو المنتصر .. " عيب يا دكتور .. انا كلها نلعب فيها على اصبعي !!." وساق لي كيف انه اعاد جرد السلاح الخفيف " كلاشن كوف "

الذي بحوزة القاعدة ، واظهر بالقوائم النهائية ان القطعة فقدت في وادي الدوم ، وليس في السارة ، وعندما يذكر وادي الدوم تنتهي حبال التحقيق والمتابعة ، فما ضاع هناك ، وترك في العراء نصيب القوات التشادية ، لا يمكن حصره .. طائرات .. دبابات .. عربات بي ام بي .. ذخائر مختلفة .. اسلحة خفيفة ومتوسطة .. مخازن الامداد والتموين .. الخ .. من يريد ان يتابع التحقيق .. يذهب الى وادي الدوم .. وأين نحن من وادي الدوم اليوم .

- فعلا .. امر مريب .. كل هذا الكم من الاليات ضاعت في العراء ، ويلاحقون بنينة لمجرد شكوك حول بندقية اكلاشن ! .. " اسمع عطيك الصحة وخلاص " .

رغب بنينة ان يحتفي بزوال الغمة صحبة المجموعة في لمة سمر ، وبالطبع دون اخطارهم بالسبب .. وكان له ما اراد ، بل وتقاطر عدد لابأس به من الشباب المقيمين بالقرب منا .. تمجريد كالعادة .. كان من بينهم الاشكداوي .. خصني بالسلام قبل ان يندمج والمجموعة ، وبالسؤال عن اخبار ابن قريته الرائد الزروق لتعذر الاتصالات .. اجبته بهمهمة .. عساه بخير .. لا اريد ان اعكر صفو سمره .. كما انني قررت مسبقا ان لا اكون انا من سيخبره .. آلمني انه لا يعرف شيء عن قريته اشكده بالجنوب الليبي لتعذر الاتصالات .

الاشكداوي .. ابن الجنوب .. يروق له الشدو بغناوي المرزكاوي .. تصدر الجمع ، واحال رتم المغنى من المجرودة الى المرسكاوي .. كلمات تفيض بالحنين للجنوب الغربي .. وفزان .. وقريته النائية بالطرف الشمالي الشرقي لوادي الشاطئ .. مما تغنى به :

زهالي مقعد فم البيت .. عليا جضن لين بكيت

لي عين مذباله وديبلها السهر .. ولي قلب جد اليوم بالافكار

تفاكير زول مناي في بالي خطر .. كميته وخلف في الجواجي نار

استمتعت بشدى صوته والكلمات .. انظر اليه وتتوارد صور المقدم الزروق رحمه الله .. سألني عن اخباره للمرة الثانية .. وحجبت عنه نبأ وفاته بوادي الناموس .. جثثه تحولت اشلاء توارت برمال صحراء تشاد .. يا لحسرتي .. حتى لحظات الفرح تفتقد نشوى الصفاء .

- 23 -

اليوم الجمعة ، العيادة مغلقة ما لم تطرأ حالات عاجلة ، التأهب للصلاة بالمسجد ، بين الحين والآخر مشهد سيارة تيوتا تحمل جمع من الجنود قدموا

لاداء الصلاة ، الملابس البيضاء ، وجاهة التقوى . رأيت معظم من مروا بالعيادة هناك ، بل وحتى اولئك المتهمين بالمروق ، العبرود ، صاحب التاكيلا ، وغيرهم ، عبدالرحمان ، مراد ، واصطفاف داخل وخارج المسجد ، انصات لخطبة الامام في خشوع تام ، العقيد " مفتاح اصبيع " آمر القاعدة ببزته العسكرية تزينها النجوم والصقر ، الخطيب ملازم اول ، خصص خطبته للحديث عن فضائل الصبر ، واجر الصابرين ، تطرق الى وصية الخليفة الراشد ابوبكر الصديق رضي الله عنه ، لحظة توديعه لجيوش المسلمين في طريقهم للحرب .. فتح مكة ، صلح الحديبية ، معاملة الاسير .

انتهت مراسم الصلاة ، امام باحة المسجد مشهد الجنود في تجمعات ، لقاء الرفاق والأصدقاء ، وحواديث عن الاحوال ومن يسترق خبرا جديد ، الاشكداوي يعيد السؤال عينه عن ابن قريته وقريبه المرحوم الرائد الزروق .. لقد نما الى سمعه وفاة ضباط من الرتب العالية في وادي الدوم ، " بوحجر " ، " بو نواره " .. يريد مني ان اسأل عن اخبار قريبه ، وامتنع الى ان تأتي فرصة افضل ، ربما بعد عودته من الكفرة .. وقد عزم على السفر هذا المساء . ويود لو انني زرته بالمزرعة التي يشرف على ادارتها قبل مغادرته .

زعيق الطائرات والعربات اخف وطأة هذا اليوم ، اعتدنا ان يستقبل مطار القاعدة ثلاث طائرات ضخمة يوميا ، محملة بالتموين ، وفي احيان تتوالى الاسراب .. معدات واسلحة ، اضافة الى سيارت الشحن العابرة للصحراء .

لقاء الجمعة سمح لأخبار مستجدة بالانتشار ، القاعدة تعج بخبر اسر ضابطة ليبية في وادي الدوم ، اسمها صباح ، ما بين من يؤكد الخبر ، ومن يشكك في مصداقيته .

عندما تأكد الخبر كان له وقع سيء على معنوياتهم ، زفرة ألم في حديث معظمهم ، حسرة وقد ضاق الصدر والمكان ، خدش الكبرياء حرقة .. موعد المسامرة الليلية ، حضر النقيب عبدالسلام وأكد الخبر .. زمجر بنينه بغضب .. " هذا عقابها .. صبايانا اسيرات عندهم .! وقت عطيب يا دكتور .. والله ما تنكتب علينا واحنا حيين ، نهربوا، وانخلوا الصبايا ليهم. !! " .

قلت لهم .. اظن ان الليبيين لن يرتضوا هزيمتين في وقت واحد .. رد النقيب .. يا دكتور .. الليبيين شطح وهتافات .. سير ولا تهتم .! .. أعظم سلاح في يد الظالم ليس المدافع ولا الجيوش ، بل عقل المظلوم .

المرضى يعانون ، ولا حيلة لي ، سوى تغيير الادوية ، اجتهد قدر معرفتي ، دون جدوى ، العقيد مفتاح رفض اي تحويل للمرضى ، لكنه ربما لا يدرك حجم معاناتهم ، ومن واجبي كطبيب ان اسعى لديه لتقريب الصورة ، اتردد في الذهاب ، وأخيرا عزمت على مقابلته مهما كان صلفا ، ضميري يؤنبني لحال المرضى ، وأنا الاولى بالتحدث نيابة عنهم .

استقبلني بنوع من التعالي والفضاضة ، وما ان طرقت الموضوع وكأن الادارة لم تبلغه ، او انهم مقصرون ، اغتاظ ورد بنبرة حانقة : التحويل ممنوع .. يعني ممنوع .. انا صاحب القرار هنا ، ومن يرفض ، لا احد اخر .. " انت من نهار جيت متركب فيها تحويل .. ما عاد قعد حد .!!. "

- كل من احلتهم صعب تشخيص حالاتهم ، والأدوية المتوفرة هنا لا تفئ بعلاجهم ، ومنهم حالات مرضية مستعجلة تحتاج تدخل جراحي ، وما اظن انني قمت بغير واجبي . أمانة احاسب عليها غدا .

- صمت برهة دون انفعال .. سمح لي بالجلوس .. بدا ان كلامي لم يروق له .. اجابني .. يا دكتور ممنوع .. انا من يقرر .. قوة القاعدة العمومية ٢٥٠٠ بين عسكري وضابط .. هل تعلم كم عدد القوة الآن ؟ .. 1700 عسكري .. هناك

عدد ٨٠٠ غياب .. لا يمكنني حماية هذا الموقع المترامي الاطراف بعدد يسير من الجند .. معظم الجنود هرب بطريقة او اخرى ولم نعد نعرف اين هو ، الضباط ايضا ، كل من ذهب في مأمورية الى طرابلس او بنغازي او اي مكان لم يعود .. الامر ليس بالسهل كما تعتقد .

انتهت المقابلة .. لا جدوى .. حالة من التذمر طاغية على الآمر كما المرضى الذين ينتظرون نتائج المقابلة ، وأنا بين الاثنين تقتلني الحيرة .

في المساء زف خبر غياب الاشكداوي وزميله وهم في طريقهم الى الكفرة ، كنت اخر من ودعه ، وأخر من تحدث اليه قبل المغادرة ، وزيارة المزرعة فترة المساء تكاد اصبحت جزء من روتيني اليومي .. لحظة المغادرة سألته عن حاجتهم الى الماء ، واخذ الاحتياطات اللازمة ، الصحراء لا ترحم ، وكانت مسائية وداع .. تجولنا بالمزرعة ، اطلعني على الخضر التي وعد بتوزيعها على الجنود في رمضان حال نضجها ، المقدونس ، الفلفل الاخضر ، الطماطم ، الخيار البلدي .. تحلقنا حول ابريق الشاي الاخضر الرقراق ننتظر نضجه ، سوالف الدهر والاوان ، نتأمل نخلة تذكرنا بأرض الجنوب فزان ، ارض النخيل .. آه ثم آه .. تصدر عنه مثقلة بالحنين .. " شبح النخل خطر عليّ بلادي .. ويا ريتني وليت مني غادي " .. ارد على تأوهاته .. " فتنا النخل والديس وتعدينا ..

خذانا النظر يا ريتنا ولينا " .. اين هو الآن .. تاه بالصحراء ولا خبر .. قلبي يتفطر حزنا لفراقه ، انه بلدياتي .. رفيق انسي بهذه القفار المجدبة .. هذه الصحارى كم التهمت من التائهين .. صورته لحظة ركوب السيارة ورفيقه تلاحقني .. عدم اكتراثه بتحذيراتي .. الكفرة قريبة يا دكتور .. لمرات ومرات قطعت الطريق عينه .. لا تشغل بالك .. مع السلامة .. في حفظ الله .. رد .. مع السلامة .

لم يسعفني صبري والجميع هنا يلوك خبر فقدهم ويترقب العثور عليهم ، القلق يحاصرني .. توجهت مرة اخرى على مضض الى الادارة ، طلبت مقابلة الآمر ، كان مشغول جدا .. يتحدث على الهاتف لحظة دخولي رفقة بنينة ، دعانا للجلوس وواصل حديثه ، مما قال : " انشالله .. غدا صباحا سيقوم الطيران بجولات استطلاعية " .

- تفضل يا دكتور .. ان شاء الله خير ؟.

- يا أفندي ، جئنا نتحرى خبر رفاقنا الاشكداوي وزميله ، وما اذا كان لديكم معلومات عنهم ؟ .

- اه .. هذا ما كنت اتحدث به مع القيادة .. صدرت التعليمات بالبحث عنهم غدا صباحا .. اطمئنوا .

لا حديث تلك الليلة إلا عن " الاشكداوي" ورفيقه .. لم يصلوا الى الكفرة ، ولم يعودوا الى السارة .. وفي الصباح الباكر بدأت طلعات طائرات الانتينوف ، والسمركيتي ، ونحن على احر من الجمر نتلقف الاخبار .. يتضاعف التوتر والقلق كلما عادت طائرة ولا خبر .. الى ان عادت احدى الطائرات ووصل خبرهم ، لقد وجدوا على مسافة 30 كم متر عن موقع سيارتهم المعطلة ، لكنهم فارقوا الحياة عطشا .. نضب الماء ، وانهكهم السير وحر الصحراء .. تألمت لفقده ، حزنت حقا ، تمنيت لو انني اخبرته بمصير قريبه الرائد الزروق ، وعزيته فيه قبل ان يغادر .. هل سيغفر لي خطيئتي ؟ .. ها هم اليوم وقد غادروا جميعا ، لحق به ، ولابد ان اللقاء سيجمعهم هناك ، في حياة خرى .. ترحمنا على فقدهم ، تبادلنا العزاء ، كان يوما حزينا مرهقا .. تمر اللحظات بتثاقل مضني يقصم كاهلي .

هذا الفقد الذي لا ينتهي ، ودوامة الحزن الجارف ، انها مأساة شعب .. ومغامرة عبثية تلاحق امجاد واهية ، نزيف الارواح ، فراق الاحبة والرفاق ، لم اجد ما اواسي به النفس سوى الذهاب الى حيث كنا ، المزرعة نقطة الوداع الاخير ، جلست جوار جداول صغيرة انجزتها يده بالأمس على هامش المزرعة ، بكيت بحرقة .. وبكيت .. يا للوعتي .. هنا حيث كنا بالأمس .. صدى كلماته تطرق اذني .. حركاته وسكناته .. لحق بي بنينه ، يطلبني تخفيف حزني ..

احتضنني من جديد .. ردد عبارات العزاء ، الموت حق .. التجلد بالصبر .. هذا هو حال البلاد .. ليبيا بمجملها تريد من يعزيها . ! .. " كلنا ماشين لها .. واللي هلب اليوم ، تصيده غدوه " .

المزروعات التي اعتنى بها رمضت .. حزنا لفراقه .. وجدت في اعادة انعاشها شيء من الوفاء لروحه ..هم بنينة بمساندتي في ري الجداول ، واخبرني ان العقيد مفتاح حضر الى حيث اقامتنا ويود تعزيتي ، يبدو انه علم بقرابتي والاشكداوي ، ورفقة .. كنت اود ان اقضي بقية اليوم بالمزرعة .. لا رغبة لي برؤية احد .. في هذه الخلوة اجد عزائي .. وأمام اصرار بنينة اخترنا العودة .

- ارى فقدهم يكاد يحرقك .. يا دكتور .. هون عليك .

- وأكثر .. ويؤلمني ان اهلهم وذويهم لم يتم ابلاغهم ، ماتوا ولم يجدوا من يبكيهم .

- اظن انك لم تترك لهم دموع يبكونهم بها .

- افكر في زوجته وأبنائه القصر ، وفي رفاته الذي سيوارى بهذه الصحراء القفر ، ولا اظنهم سيعرفون مكانه ذات يوم ، كما قريبه الرائد الزروق الذي تبعثرت جثثه اشلاء .. لماذا يخفون عن اهلهم خبر فقدهم ؟

- توالت الهزائم ، الاموات بالآلاف ، وعندما تزف في حينها دفعة واحدة تتحول البلاد الى مأتم واحد .. قد تحدث ردة فعل .. وان كنت لا اظن انهم يخشون ردة فعل .. يقدموننا قرابين لتحقيق احلامهم الطوباوية .. الالاف اغتالتهم هذه الحرب الظالمة ولا تزال .

حل الليل ، وأقيم مأتم العزاء ، حضر العقيد مفتاح وجلس الى جانبي ، ولم يغب عن العزاء عدد كبير من منتسبي القاعدة ، بل وجميعهم .. قصص فقد الرفاق على لسان كل متحدث .. وتباين النهايات .. قاذف .. لغم ارضي .. انفجار .. رصاصة .. وحتى العطش اخذ نصيبه .

خطيب الجمعة كان من بين الحضور ، القى مواعظه عن الصبر والابتلاء ، والأجل والقدر .. وما تدري نفس بأي ارض تموت .. الموت حق على العباد .. كل نفس ذائقة الموت .. اختتم الموعظة بتلاوة ايات قرآنية .

العقيد مفتاح اصبيع الجالس الى جواري ، اقرب لي من اي وقت مضى ، نتبادل اطراف الحديث بين الحين والآخر ، عن حادثة فقدهم ، واخرون مثلهم ، وعن غدر الصحراء الشاسعة ، يسألني عن اهلي ، وما إن اتصلت بهم هاتفيا .. ملاطفة محمودة منه .. لكنني اشعر بنزق وحنق لمأساة الرفيق الذي غادرنا ، كيف يدفن هنا دون اخطار ذويه بخبر وفاته .. بودي اسأل العقيد مفتاح عن

الدواعي .. لكنني اكتفيت بسؤال واحد .. همسا .. وبجسارة اظنه لم يقبلها .. يا افندي : لماذا حرب تشاد ؟

- موضوع كبير يا دكتور .. وشائك .. الجواب يحتاج لجلسات اطول ووقت مناسب .!!

- 25 -

كدت اخلد للنوم .. الطقس داخل الغرفة حارق .. اشبه بفرن الجمر .. صيف الجنوب .. درجة الحرارة قاسية .. لكنه في البراح الخارجي .. ممتع ليلا .. نسمة رطبة .. اعددت فراش في الهواء الطلق .. اتأمل صحن السماء .. النجوم السيارة .. النجم القطبي ودرب التبانة .. عظمة الكون تتجلى في ليلة غاب عنها القمر .. وفي موعده المتأخر دائما ، موعد قدوم النقيب عبدالسلام .

- كيف انت هذا اليوم ، ألا زلت تطارد النوم ولا تجده .

- نعم .. اسعى اليه .. اطلبه ويأبى .. الفكر في الاهل والوطن يشغل تفكيري .. وهذه الرمية العجيبة في اتون صحراء جرداء .. واخبار الحرب والقتال .. ومتى تنتهي الحرب ؟ .. والى اين نحن سائرون ؟ .. ورفاق غادروا ولن نراهم ثانية .. كل شيء يعادي النعاس .

- اشعر بوجعك .. وجعنا جميعا .. الحرب هي الحرب .. اننا في مأزق ومسرحية متعددة الفصول بدأت منذ وقت طويل ، ولا ندري متى يسدل الستار .. حرب تشاد ورطة ليبيا .

- اخبرني شيء عن معاصرتك لهذه الحرب ؟ انت عسكري اقرب منا الى فصولها .

- اول السبعينات برز نشاط حركة فرولينا ، حركة معارضة للنظام الحاكم في انجامينا عاصمة تشاد .. كان " حسين هبري " القطب البارز بالحركة .. وليبيا داعم خفي .

عام 1978 م .. بدأ النظام فعليا التدخل في شؤون الدولة الجارة ، دفعت بآليات مجنزرة وطلائع الجيش .. عبر مدن الجنوب .. سبها ، ام الارانب ، القطرون ، الويغ ، الكفره ، لتتجاوز خط الحدود .. منحازة الى قوات فرولينا .. عبرت مدن شمال تشاد ، زوار .. أوغي .. عين كلك .. كردمي .. الخ .. عبرت ألاف الكيلومترات ، وتم لتلك القوات المشتركة دخول العاصمة انجامينا وتنحية الرئيس فيلكس معلوم ، ونصب قائد قوات احدى فصائل فرولينا " كوكوني عويدي " رئيسا ، وحسين حبري وزيرا للدفاع .. لكن الاخير اختلف مع الرئيس وتمكن من طرده ، ومن تنصيب نفسه رئيسا للبلاد ، بل ورفض الهيمنة الليبية

على القرار التشادي ، وطالب بالانسحاب من اقليم اوزو الحدودي .. المختلف حوله آن ذاك .. التجأ كوكوني الى الشمال ، ومن جديد وجد في الحليف الليبي داعما لتكرار الجولة والمحاولة ، وتمكن من طرد حبري ، وتولى رئاسة البلاد ، وفي هذه المرة كانت القوات الليبية صاحبة اليد الطولى في تحقق الانتصار تحت ذريعة دعم الحكومة الشرعية بزعامة الرئيس كوكوني ، لكنه ما ان اعتلى كرسي الرئاسة ، طلب انسحاب القوات الليبية التي اطلق عليها مفهوم قوات السلام .. لم يلقى قراره قبولا لدي القذافي ، فأمر الاخير بانسحاب القوات فورا ، ما احدث فراغ استثمره خصمه حبري المتربص بالكمرون .. اعاد ترتيب قواته ، وانقض على العاصمة ، ثم لاحق فلول كوكوني والقوات الليبية المتمركزة بالشمال .. والحق بها الهزائم تلو الهزائم ، غنم قواعد عسكرية مجهزة ، واليات ومؤن .

حرب كر وفر ، استنزفت طاقات ليبيا البشرية والمادية ، دمرت معنويات الجيش الليبي .. افرغت خزينة الدولة ، حرمت الشعب من الوفرة النفطية في حينها . توقفت حركة التنمية .. المدارس اصبحت ثكنات عسكرية .. والشعب يهتف قسرا : " بالخبزة والماء .. قررنا الحياة ".. اغلب الضباط .. يا دكتور .. متذمرون مما يجري .. بحر السياسة الهائج .. الحاكم الجيد يجب ان يكون اكثر الرجال علما وذكاء .. وليس من الحكمة ان يترك شعب ينام على المرارة .

- اذهلني سرده للأحداث ، وعن تصريحه بالتذمر والرفض .. سألته : كيف يأتي هذا من ضابط يقود معركة ؟

- هذا هو واقعنا ، ولو انني لا اثق بك ، لما صارحتك ، نحن وقود هذه الحرب ولسنا قادتها .

- 26 -

اعتددت مؤانسة النقيب عبدالسلام .. حديثه ممتع ، طلاقة اللسان .. ذكاء ثاقب ، بصيرة نافذة .. تنهل من عقلية واعية .. مثقف ومحب للاطلاع .. تحصل على تقدير ممتاز بالشهادة الثانوية ، وثم توجيهه للقوات المسلحة ، وإذ لا مناص .. حسه الوطني فرض عليه القبول ، ففي قناعاته يؤمن بالوحدة العربية طريق لتحرر الامة من الهيمنة الغربية .. اذا تحدث عن الصادق النيهوم يذكرك بأخر مقالة له بمجلة الناقد ، وعن مالك بن نبي يشرح معنى القابلية للاستعمار .. وفي اصله توليفة ليبية .. والده من منطقة " بير الغنم " .. اسرته تقطن منطقة بن عاشور طرابلس ، والدته من مدينة درنه ، من جذور قريتلية .. درس بمدرسة

على النجار الثانوية بطرابلس .. يعد ضمن خلايا اللجان الثورية بالقوات المسلحة ، وعندما سألته عن خيار انخراطه .. اجاب :

- تاريخ مضى تعلمت منه الكثير ولا اود الرجوع اليه ، وليس الوقت مناسبا لطرقه .. كما علمتني تجربتي بالقوات المسلحة الكثير ، شاركت في حرب لبنان 1982 - 1983 م .. وشاهدت العبث الذي دمر منارة الثقافة العربية آن ذاك ، وكيف تصادمت ارادات قوى عالمية لتحرق بلد صغير بحجم لبنان ، وما كان دخول ليبيا حلبة الصراع سوى نوعا من التجني اللامجدي ، حال دول الخليج التي انحازت هي الاخرى لتأليب طرف على اخر .. صراع ارادات ، وأموال تضخ من هنا وهناك ، افضت في النهاية الى تصفية القضية الفلسطينية .

- كيف ترى ليبيا المستقبل ؟

- اعتقد انها ضائعة بين خليفة وخليفة وخليفة .. ولا مجال لشرح التفاصيل .. عليك ان تعرف الفرق بين " الدرناوي والدرنيني " .. و " ورفلة الفوقيين ولوطيين" ؟!.. ان ذلك السفر لم يكن يحتاج لذلك الخرج .. لذلك استعدوا لاكتشاف طاغية اخر .. كيف تريد ان تبني دولة حضارية وأنت تتغنى بمنطق القبيلة ، عشت في طرابلس العاصمة ، مدينة تتوق للعصرية والحداثة ، زملائي بالمدرسة اعرف أسمائهم وأسماء عائلاتهم ، تربطني بهم علاقة متينة ، انظر

اليوم ما الذي يجري ؟!! .. تتجول وسط العاصمة ، تداهمك لوحات تعلو مقرات .. رابطة شباب ترهونة .. رابطة شباب الصيعان .. رابطة شباب الزنتان .. الخ .. هذا الانحراف بالقبيلة مدخل لتجزئة الوطن وتمزيق نسيجه الاجتماعي .. لا عهد لنا به .. لماذا يحدث كل هذا .. اسأل نفسك دكتور .. بدونة المدينة العريقة .. لتصبح مدينة القبيلة .. أظن اننا اخترنا الخيار الخاطئ .. والذي ستكون نتائجه كارثية في المدى القريب والبعيد .. تشظى كيان الدولة .. وأضحت تائهة . وما نزرعه اليوم ، سنحصده ثماره غداً، .. كل ما أقوله الآن .. " ان شاء الله الطيحه تجي تسلحيب " .

- 27 -

" بوليس " احد الرفاق الذي عاد لتوه من الاجازة .. تحصل على اسبوعين أتم خلالهما مراسم الزواج ، فرحنا بقدومه ، واحتفينا به ، باركنا له الزواج ، معظم الجنود عزاب ، يدفعهم فضول لتحري تجربة الحلم بعش الزوجية ، تكاليف وطقوس الفرح ، والمصاعب التي لاقت زميلهم ، وكيف تدبرها وتغلب عليها .. لم ينسى نصيبنا من المكسرات ، وحدثنا عن كل خطوة خطاها ، فساتين العروس ، مستلزماتها ، الى اللوز ، الكاكاوية ، جميعها من

تركيا ، سافر اخيه الى استنبول للغرض ذاته .. هنا بدأت تعقيبات الرفاق .. حتى اللوز والكاكاوية لم تعد متوفرة بالسوق .. لنقرأ الفاتحة على المرحومة ليبيا .

كنا متلهفين لتلقف الاخبار .. وصف لنا ما شاهده في ببنغازي واجدابيا .. قصص الموت ، ضحايا حرب تشاد ، ومع اطلالة كل صباح جديد ، بلاغ عن متوفى جديد .. خيم العزاء في كل شارع ، مدن تحولت الى مآتم .. الناس تتألم بصمت .. واكتسى الحديث طابع الحزن والرثاء ، بديلا عن الفرح والاحتفاء .

في المساء حضر الطبيب التشادي " غمجه" المرافق للقوات الصديقة ، برفقة مريض يتصبب عرقا ، ويئن بفزع ، لا يكاد يقف على صلبه .. يهذي بكلام مبهم ، فهمت من الطبيب ان المصاب هو قائد القوات الصديقة ، ويدعى " اكوكو قاجا " ، لذغته عقرب .. ولم تجدي الاحجبة والتمائم ولا قراءة العزائم .. شرعت بإسعافه ، حقنة مضادة لسم العقرب ، كمادات ، كان الدواء المتوفر فعالا ، مثل هذه الحالات تتكرر هنا ، ولم يمضي من الوقت الكثير حتى شعر بالتحسن ، خف الالم ، وعلامات رضا الطبيب غمجه بدت ظاهرة على وجهه ، قدم شكره لنا على ما قمنا به .. عادت البسمة الى وجه " اكوكو قاجا" .. انت يا دكتور .. ان شاء الله ما يشوف شر !!.

في الاثناء يبدو ان الخبر بلغ القيادة ، فوجئنا بحضور العقيد مفتاح يطمئن على الحالة ، شكرنا هو الاخر .. تمنيت لو انني انتهزت الفرصة وتحدثت معه بخصوص ضرورة تحويل الجندي " مراد " الذي يعاني من تقرحات جلدية حادة ، ورفضت اوراق احالته للمرة الثالثة . لكن ذلك لم يحدث .

- 28 -

حل شهر رمضان ، تغيرت المواقيت والمواعيد .. عمل العيادة من التاسعة الى الواحدة ظهرا .. ومن العاشرة الى الثانية عشر ليلا .. كعادة معظم الليبيين .. السهر ليلا ، والنوم نهارا ، ومع اشتداد درجة حرارة النهار في عمق الصحراء ، ثمة ما يبرر الكسل .

اقتصرت المعالجات صباحا على تغيير ضمادات الجروح ، الامراض الجلدية .. " مراد " يتردد باستمرار ، الطفح الجلدي يزداد التهابا ، وأمام الرفض المتكرر لإحالته على طبيب مختص ، زاد تدهور صحته يوم بعد يوم .. الاكتفاء بإحالة التقارير الى الادارة لن يجدي ، قررت ان لا مجال للسكوت اكثر ، حسمت امري ، واصطحبته بعد الافطار مباشرة الى بهو الضباط حيث مركز تجمعهم ، رتب مختلفة ، ملازمين ، نقباء ، رواد ، مقدمين ، كان دخولي صحبة

مراد مفاجأة لهم ، لا زال بعضهم منهمك في تناول الاطعمة والترويقات ، امطرونا بنظرات مشدوهة .. اردت ان لا تطغى حالة الاستغراب ، طلبت من مراد ان يرفع قميصه ليرى الجميع نظر العين حجم معاناته ، وما ان وقع نظرهم على التشققات والالتهابات واحمرار لون الجلد والصديد ، وكأنه تعرض لانفجار قنبلة ، توارى معظمهم ، ومن التفت الناحية الاخرى ، لا احد رغب في متابعة الرؤية .. المقدم احمد اختار تغطية عينية ببطانية ملقاة على الاريكة حيث يتكئ ، وانزوى الى ركن البهو ، يهرف بكلام لم اميز فحواه مع او ضد .. العقيد مفتاح صاحب القرار والذي جئت لأجل اقناعه بإحالة المريض ، متكأ على اريكة فاخرة ، امامه عدة اطباق من المأكولات .. مشويات ومقليات .. وسلال الفواكة والمشروبات متناثرة بالهو .. يمينا وشمالا .. اعتدل في جلسته قليلا ، وخاطبني باستفزاز : ما هذا يا دكتور ؟

- استعصت حالته ولم اجد طريقة لأطلعكم على معاناته .. ثلاث مرات رفضتم طلب الاحالة ، الرجل يتوجع بشدة .

وضع صحن المشويات الذي بيده على المنضدة ، فتح إزار قميصه ، أشار الى ثالوله اعلى صدره .. وقال : ارأيت هذه ، ذهبت الى لندن ولم اجد لها علاج .

- يا أفندي مفتاح ... انت اعطاك ربي وتمكنت من العلاج بلندن .. هذا الجندي راقد ريح .. يأمل في العلاج بطرابلس .. اتأمل منحه الفرصة.

انتفض بنزق كعادته .. صرخ في وجه الجندي وهو يشير اليه بيده طالبا منه مغادرة البهو .. " اطلع بره .. اطلع بره " .. وقفت مشدوها امام تقلب مزاجه المفرط .. التفت اليّ انا الاخر محذرا : " اسمع يا دكتور .. هذه او مرة لك ، وأخر مرة .. تحضر عسكري مجند الى هنا " .

- حاضر افندي .. كنت اظن انني عملت ما تفرضه عليّ مهنتي وواجبي .. اسف .. شكرته وغادرت .. مع انني لمحت في عيون عدد من الضباط الرضاء والارتياح لما قمت به .

عدت للعيادة مكسور الخاطر ، وفي نفسي اقول : هذا ثمن تهورك ، بدلا من ان تساعد المريض برفع معنوياته ، وتحفيز جهاز المناعة على دفع المرض ، حطمت نفسيته ، لقد ثم نهره امام الجميع .. يا لوجعي انا الاخر .

جلست على كرسي المعالجة ، اشبه بجثة هامدة ، اعاتب النفس وأراجع فعلتي ، هل ما قمت به يعد صوابا ؟ ألا ينبغي اللحاق بـ " مراد " والاعتذار له عن ما لحق به بسببي ؟ ادمدم واهرف كفاقد الوعي .. كل شيء يمر كالغيم كالعواصف كالظلال .. وبينما انا على ذلك الحال .. حضر الطبيب التشادي "

غمجه " .. صحبة " اكوكو قاجا " .. ظننت انهما جاءا بغرض المراجعة ، لكنه بادر بالحديث .. يا دكتور .. " فيه هبر كويس ، أنتا يفرح ياسر ! " .. خبر سار يفرحني ، ما هو :

- " فيه واحد أسير ليبي ، يجي من فادا !!. "

سررت حقا للخبر ، وصول جندي ليبي سبق اسره في معركة " فادا " .. احدى الهزائم والانكسارات للجيش .. وكم من المفقودين الذين لا يعرف عن نهاية مصيرهم .. ها هو احدهم قد وصل .. الحمد لله .

- " أنتا يمشي معانا ويسمع بروهك ! " .. لما انا بالذات ، مجرد طبيب لا علاقة لي بالأسرى ، ويريدني ان اذهب معه لأسمع وارى !! . ترددت في الموافقة .. لم يسبق لي زيارة معسكرهم ، وما لاحظته ان الثقة المتبادلة بين الطرفين ليست كما يروج لها ، كلمة " قوات صديقة " اشبه بالمجاملة للحفاظ على حليف .

ادرك بنينه المأزق الذي يحيط بي ، وترددي في حسم امر الذهاب .. نادى عليّ .. يا دكتور .. المريض ينتظر وأنا جهزت الحقنة ، لنكمل ما بين ايدينا اولا .. وفي غرفة المعالجة حذرني من الذهاب معهم .. هؤلاء لا ثقة بهم .. ولكن لا تتركه يغادر ، سأذهب الى النقيب عبدالسلام وأستشيره فيما يجب فعله .

انهيت معالجة الحالة ، وعدت لمواصلة الحديث مع الطبيب وقائد القوات الصديقة .. وكسبا للوقت .. سألتهم كيف هي احوال القوات ؟

- والله يا دكتور .. ما كويس .. ما كويس .. فيه جوع كثير .. ما في " منجريه ".

- ابديت تعاطفي معهم ، كيف يمكن ان تشكو القوات الصديقة من الجوع !! .. الى ان حضر بنينة والنقيب عبدالسلام ، كل على حده .. وعلى الفور سأل بنينه النقيب عبدالسلام : هل من المسموح به مغادرة الدكتور للعيادة والموقع ؟ .

اجاب النقيب باستغراب شديد .. ماذا قلت ؟ .. ممنوع منعا باتا !.. ثم سأل : الي اين ؟

أجبته .. الطبيب " غمجه" والقائد " اكوكو قاجا " افادوا بوصول أسير ليبي ، وهو موجود عندهم بالموقع .

طلب منهم النقيب احضار الاسير فورا ، وبلهجة حادة لم تعجبهم ، وتوترت الاجواء لولا تدخلي ، هدأت من الموقف ، كنت اشعر بأنهم ارادوا رد الجميل لي شخصيا .. قلت للطبيب ومرافقه ، طالما هو اسير ليبي يجب احضاره .. وقبلوا بالأمر .. وان يتولى النقيب عبدالسلام المهمة .. بعد جدل .. ورفضه لذهابي .. ابلغهم انه سيذهب مع سرية حماية .. عصر اليوم .. وتم الاتفاق .. ومع موعد

الافطار .. عاد النقيب عبدالسلام وبرفقته الاسير العائد .. قابله الجميع كشقيق غائب لدهر .. احضان .. قبلات .. تهاني بالنجاة وسلامة الوصول .. عمت الفرحة المكان .

- 29 -

كل الانظار تتجه نحو الاسير القادم بعد فقد طال ، شاهدا على معركة " فادا " والهزيمة الماحقة .. شاب ثلاثيني ، ندوب الاسر وويلاته ظاهره في تراقص عينيه ، وكأنه لم يصدق بعد انه نجا مما كان فيه ، نحيل الجسم ، لحيته الكثة وعيونه الغائرة تنبئ بحجم ما ناله من هول الاسى .. عندما بدأ يحكي قصته ، انصت الجميع باهتمام بالغ ، الافواه فاغرة ، الاذان صاغية لكل حرف وكلمة ، العيون تتحرى حركاته وسكناته ، ونبرة الشفاه .

كنت ضمن القوات الرابضة بمنطقة " فادا " .. بغتة فوجئنا بهجوم القوات التشادية من كل جانب ، تشتتت القوات وفقدت السيطرة والمناورة ، وتم لهم احتلال المكان بالكامل ، حيث تمركزنا ، لم يتوانوا في قتل من لا يزال على قيد الحياة ، رأيت رفاقي يقتلون امامي بدم بارد ، رغم اعلانهم الاستسلام ، اختبأت

تحت غطاء مهتري لمدفع 14.5 .. " قيطون " .. شاهدت كيف كانوا يبتهجون بالنصر ، وبلملمة الغنائم ، عربات رشاش 14.5 .. مدافع 106 .. عربات صواريخ الجراد .. الاسلحة الخفيفة ، ثم اتجهوا نحو مخازن التموين ، يحتسون العصائر ويصرخون بهستيريا فظة .. لم يتركوا اي شيء إلا اخذوه .. ظللت متسمرا في مكاني .. ارى الموت يقترب .. ولا اجد مفر منه .. يساورني الأمل في ان لا يثير نهمهم هذا الغطاء البالي .. لكن احدهم اتجه نحوي ، وعندما هم بحمل الغطاء .. استثقل الحمل .. جمد الدم في العروق عندما نفض الغطاء .. أصبحت امامه حاسر الوجه والجسد .. صرخ في وجهي وانهال ضربا مبرحا .. لحق به اخرون ولم يتوقفوا عن ضربي وتعذيبي .. كل واحد منهم يركلني بطريقته ، تتقاذفني الارجل واللكمات .. والدماء تسيل مني من كل جانب .. شروخات في الوجه تركت اثارها ، كما ترون .. لا رحمة ولا شفقة .. اصرخ .. واصرخ .. استجدي رصاصة رحمة .. جفت حنجرتي .. تبلد جسدي .. خفت الموت .. وعندما تمنيته لم اجده .. بعد اكثر من نصف ساعة من العذاب المتواصل .. حضر شخص آخر .. احاط بي ، كنت منهك الجسد تماما .. حملوني كالجنازة الى حيث يقبع ثمانية اسرى ليبيين .. وجدتهم وقد نال منهم التعذيب ما نال مني .. يئنون ويتوجعون .. يتململون وجنوبهم لا تحتمل استرخاء الجسد .. كنا جميعا نرمق لبعضنا البعض كأشباح .. بقينا على تلك

الحالة لعدة ايام .. الالم والخوف والجوع والعطش تحاصرنا .. قليل من التمر والماء يرمى لنا كما يرمى للحيوانات .. وفي اليوم الثاني جرجروا اثنين من رفاقي الى الخارج ، وبعد قليل سمعنا صوت الرصاص .. وصرختهم الاخيرة .. ايقنا بأن الموت قد حان موعده .

في اليوم السابع .. دخل علينا احدهم .. نظر اليّ وبدت ابتسامة على وجهه .. ظننت لحظة اللحاق بالرفاق الآن .. لكنه خرج ولم يجرجرني .. عاد بعد لحظات بمفرده .. وفي جعبته ماء وتمر وقطع من الخبز .. وضعها أمامي .. ثم انحنى ، و قبل راسي .. وخرج .. ذهلت ولم استطع تفسير موقفه .

منتصف الليل .. وبينما كنت مستغرقا في نومي .. تحسست وجوده وعودته .. ايقظني وامسك بيدي .. تبعته الى الخارج حيث جرني .. تثاقل جسدي الى الارض .. همس لي .. لا تخف .. لا تخف .. هيا .. تعال معي .. وما كان لدي خيار .. قادني لمسافة تزيد عن كيلو متر مشيا على الاقدام .. هناك وجدنا سيارة تيوتا تنتظر قدومنا ، يقودها اثنين من التشاديين ايضا .. ركبنا السيارة وانطلقت بنا تطوي الصحراء الى حيث لا ادري .. وبعد مسير لحوالى ساعتين .. توقفوا .. وقالوا لي : " توا أنتا فيه نوم " .. عند الفجر استيقظوا .. الشخص الذي جرجرني من الاسر يتوضأ ويتهيأ للصلاة .. بعث في نفسي شيء من الطمأنينة

لا عهد لي بها منذ لحظة الاسر .. توضأت وشاركته الصلاة ، وان كانت حركتي مترهلة ووجع ووخز التعذيب يؤلمني من كل جانب .. شاركوني زادهم .. خبز وتمر .. انعشني .. كان نور الفجر قد بزغ في الأفق .. رفع العمامة عن وجهه وسألني : هل عرفتني ؟

نظرت اليه .. حاولت ان اتفرس ملامح وجهه .. لم اتمكن من معرفته .. قال لي .. انت نسيت .. انت تنسى .. ألا تذكر يوما ما عند بوابة البرطمة (200 كم شمال سبها منتصف الطريق الرابط لواحتي الشويرف وبراك طريق طرابلس الجنوب) .. كان ذلك قبل خمس سنوات مضت .. كنت احد الجنود الرابضين بالبوابة ، انزلونا مجموعتك من السيارة ، كنا مستأجرين .. وضعونا في " تريلا " .. حجرة الصفيح .. ينادون علينا .. العبد .. هات العبد .. وكان من بيننا اشخاص من النيجر وغانا .. جماعتك اخذوا منا كل ما بحوزتنا من اموال ، وهي ضئيلة ، ولكن ذلك ما كنا نملك .. (هات فلوس) .. بقي بحوزتي خاتم صغير بالأصبع .. اخذوه ايضا .. اعتقدوا انه من الذهب .. ثم اتى احدهم .. لا ارى فيه إلا صورة شيطان .. نعم اقول انه من شياطين الانس .. انهال علينا ضربا وإهانة .. كنا ندرك انه يريد المال ويعتقد اننا نخبئ اموالنا .. فتحت انت الباب .. اوقفت تهوره ، وضربه لنا ، اعدت لكل منا المال الذي اخذ منه ، وعندما قلت لك انهم اخذوا مني خاتم اصبعي ايضا .. ذهبت اليهم .. وكنا نسمع الهرج والمرج بينك

وبينهم .. هو يقول لك هؤلاء عبيد .. وأنت ترد عليه اين خاتم الرجل .. اعطه خاتمه .. واعدت لي خاتمي .. ثم اشار الى اصبعه وقال .. هذا هو الخاتم عينه .. انا لا انسى إن نسيت .. انت من اهل الخير ولا يجب ان تموت .. انت رجل تستحق الحياة .. انا اموت دونك .. " انت انسان هرام يموت " .. انهمرت عيناي بالدموع .. بكيت وبكيت .. وهو يحضنني وزملائه .. نعم تذكرت ذلك الموقف .. وافراد " التوكه " المجموعة .. ولم اجد مبرر لتعذيبهم .. وأدركت ان من يعذبهم يريد ان يسرق اموالهم .. وقمت بإعادتها اليهم .. وكل ما سلب منهم .. وأطلقت سراحهم جميعا .. يا الله .. ما كنت ادري انني سألتقي احدهم أبدا في هذه الدنيا مرة اخرى !! . يا للمصادفة الفارقة .. تحركت السيارة واتجهنا نحو " اوجنقا" .. ومنها حتى أوصلوني الى القوات الصديقة .. الحمد لله انا اليوم بينكم .. صدق المقال " دير الخير وأنساه .. ودير الشر وأرعاه " .

تلك الليلة .. امتزجت دموع الفرح .. ودموع الحزن .. خضبت ثرى المكان .

- 30 -

الأسى والفقد .. الموت والأسر .. الفجيعة .. بصمات الحرب عبر الزمان .. من يشعلون فتيل الحرب ، يسبغون فعلتهم بلحاف الحق المقدس .. يبررون

تهورهم بشرعية زائفة .. يختلقون الذرائع .. يغترفون من معين الدين والوطن ما يواري سوءتهم .. الدفاع عن العرض والوطن والدين .. يغرقون جندهم البسطاء بشعارات تبتز فيهم روح الاخلاص .. يعدونهم بالمجد والخلود .. يكبرون فيهم حب الاستشهاد .. شهداء الحق .. الموعودون بالجنة .. في خطبهم نبرة الافتراس .. وروائح الموت .

ليلة الامس كانت الفرحة غامرة بوصول الاسير المفقود .. واقعة خلاصه من براثن الموت .. اعجوبة .. بعثت في نفوس مستمعيه العبر .. وفي نفس رئيس العرفاء منصور الترهوني فجرت شجون تعود الى الماضي القريب .. عام 1980 م عندما اجتاحت القوات الليبية الاراضي التشادية .. يستذكر تلك التجربة ، ويعلق بامتعاض شديد بين اللحظتين .. يتحسر على واقع الجيش بين الامس واليوم .. التدريب والإعداد .. المعنويات .. المهارة .. حرفية التخطيط .. يختصر الفرق في عبارة واحدة : " بالامس كان لدينا جيش .. اليوم دوه فارغة " اي لا شيء .

عام 1980 دخلنا تشاد بمحورين .. الشرقي انطلق من واحة الكفرة نحو السارة الى اوجنقا ، ام شعلوبه ، ابشه .. والمحور الغربي من فزان نحو اوزو ، كرزو ، بردي ، فايا لارجو ، وصولا الى العاصمة انجامينا .. خلال شهرين فقط

احكمنا سيطرتنا على كامل التراب التشادي .. كان لدينا ضبط وربط .. وفرضنا احترامنا على الشعب التشادي بطيب المعاملة .

بعدما سيطرنا على مدينة " ابشه " في ديسمبر 1980 م .. تمركزت قواتنا بإحدى الاودية .. انتظرنا عدة ايام .. اعدنا تنظيم صفوفنا استعداد للهجوم على العاصمة انجامينا .. كان الموطنين التشاديين المدنيين على مقربة منا .. وذات يوم قدم شيخ مسن صحبة ابنته ، طلب مقابلة الآمر .. ظننا انه يريد مالا او تموين ، وان اعتقد البعض انه يبيع شرفه .. استقبله الآمر محمد .. لمدة تزيد عن الساعة .. ثم خرج الآمر وطلب تجمع كل القوات .. حالا .. دون استثناء لجندي او ضابط .. امتثلنا للأوامر .. نادى على الشيخ وابنته ، وطلب منهم تفحص الوجوه .. فردا فردا .. عددنا يفوق الاربعمائة عسكري .. بعد تفحص ما يقارب المائتين .. اشارت الفتاة على مجند ، وقالت : هذا هو .. هو .. هو .. صرفهم الآمر وأعاد الاصطفاف بطريقة مختلفة ، ونادى على الفتاة ووالدها ، تفحصت الوجوه للمرة الثانية ، وأشارت للشخص عينه ، وكذلك الكرة الثالثة .. طلب من الشيخ وابنته انتظاره في ردهة الادارة .. وبدأ التحقيق مع المجند الذي اعترف بأنه وجد الفتاة ترعى اغنام بالوادي المحاذي لموقعنا ، كانت بمفردها ، توقعت انه يرغب احتساء حليب الماعز ، لكنه انقض عليها ، واغتصبها .

دبت حالة من الغيظ بين الجميع ، استنكارا لفعلته ، خرج الآمر من جديد الى الساحة وبيده سوط ، وطلب التجمع من جديد .. ربط الجندي على جدع شجرة امام الجميع ، وأقام عليه حد الجلد .. مائة جلدة .. بحضور الشيخ وابنته ، كان المجند يتلوى وصرخ بأعلى صوته ، وعندما انتهى من جلده ، فك رباطه ، وطلب من مجموعة التموين ان يتولوا مهمة تحميل تموين من مختلف الاصناف ، وبكميات وفيرة ، وإيصال الشيخ الى حيث اقامته ، وجبر خاطره ، وطلب السماح .. وبالفعل .. قبل الشيخ بالمراضاة .

في اليوم التالي حضر مجموعة من مشائخ المنطقة ، قابلوا الآمر محمد ، قدموا شكرهم له ، وأعربوا عن اطمئنانهم لتواجد القوات الليبية .. وان لا اعتراض لديهم على قوات تحتكم الى الاسلام دين .

هكذا كان الجيش في الثمانينات .. يقوده قادة مخضرمين .. يحكمه الضبط والربط ، وتميزه الاحترافية والمهارة والمعنويات العالية .. اين نحن اليوم من ذاك الزمن ؟ .. هل يعقل ان يتألف جيش من طلبة مدارس حديثي السن ، لا معرفة لهم بشؤون الحرب والقتال ؟ يدفع بهم الى الجبهات اشبه بالنعوش .. " طاجين " .. اما المعنويات ، فما تبقى منها تترجمه حالتي .. منذ اكثر من سبعة اشهر لم ارى عائلتي !! .. وهذا حال جل من تراهم هنا ، لا احد يرغب بالقتال

وخوض الحرب .. او مجرد اطلاق رصاصة واحدة بالجبهة .. مجرد اناس مرغمين على التواجد هنا ، ينتظرون لحظة الزحف على المكان ليتفرقوا .. لن يقاوم احد .. الجيش دمر نهائيا .

كنت استمع لكلماته وأتوجس الخطر القادم .. نحن هنا في المقدمة .. وفي اي لحظة معرضون لهجوم مباغت .. فما عسى ما تخفيه لي الاقدار ، والايام المقبلة ؟! .. وفاتني ان لا احد علق على طريقة وصول الجندي الاسير ، اذ كيف لقوات عدوة تصل الى مشارف القاعدة وتتعامل مع القوات المصنفة صديقة ؟ اظن ان الحس الامني لدى اجهزة الاستخبارات غاب عن تحليل الواقعة ، كما غاب عن القيادة الاخذ بتحديرات الضباط والجنود من تلك القوات المصنفة بالصديقة .

- 31 -

شهر رمضان .. وارق الصوم .. هذا الصباح حضرت للعيادة مبكرا .. لاحظت وأنا اهم بجرد الادوية والمستلزمات نضوب علاج السعال " اكتفيد " .. انتظرت بنية الذي يأتي متأخرا بعض الشيء ، سألته عن الكمية المتبقية ، وتبين

لي قيامه بصرف العلاج من تلقاء نفسه دون استشارتي .. ليس من عادته ، كيف يحدث هذا ؟! ، اجابني : كثر المترددين لطلب العلاج ، وأدرك كما حدثك سابقا انهم لا يعانون السعال ، ولكنهم وجدوا فيه مهدئ ومخدر لهم بديلا عن الخمر .. وتبين لي ان عدد معاقري الخمر بالقاعدة كثر ، قلت في نفسي لما لا ، بدلا عن شربهم لقاذورات وسموم " التاكيلا " التي يصنعونها بأنفسهم .. قنينة لكل فرد .. كنت اظن انني افعل الخير .. وها انا اعتذر .

- لكننا في رمضان شهر التوبة والمغفرة .. أليسوا صائمين ؟

- جميعهم صائمين .. يتناولون جرعة بعد الافطار .. وحبذا يا دكتور وأنت تعد الاحتياجات والنواقص المطلوبة مستقبلا ، ادراج الحاجة الى كمية من الصناديق حجم كبير من علاج السعال " اكتفيد " .. " على الاقل ننستروا مع العرب " .

قدم جندي مكلف من العقيد مفتاح .. الآمر يطلب حضوري الى مكتبه بعد الظهر .. علم ، وسأكون في الموعد .

لم يهنأ لي بال ، ما حاجته بي ، بالأمس نهر الجندي المريض ، وحذرني بصلف ، اشعر بالقلق .

وإذا لا مناص من تنفيذ الامر الصادر .. بنينه ايضا شعر بعدم رغبتي في المقابلة .. يشد من ازري بعبارات من المأثور الشعبي : " الراجل طير حر ان حصل ما يتخبل " .. " يجيبها الله لك زينة " .. وبعدين : " ليلة قبرك ما تبات في الخلاء " .

في الموعد .. ركبت السيارة واتجهت لمقر الادارة .. ومكتب الآمر .. الحراس يبدو انهم على علم بقدومي .. وما ان ولجت المكتب ، هلل ورحب بقدومي على غير ما عرفته ليلة البارحة ، شعرت وكأنه عاتب نفسه ولم يقوى على الاعتذار .. وبنوع من الدعابة قال لي : بودنا ان نقدم ضيافة لك ، مشروبات باردة تخفف وطأة الحر .. لكننا في شهر الصوم .. اود فقط ان ابلغك بأنني وافقت على احالة المجند المريض الذي حفزك للقدوم ليلة البارحة .. وبإمكانه المغادرة هذا المساء بالطائرة . ادرك بأنك خرجت بالأمس غير راض .. لكن يجب ان تدرك ايضا ان الوضع هنا خطير للغاية . نحن اصبحنا في الواجهة .. الجيوش في المواقع المتقدمة سابقا ، تقهقرت ، وتوالت الانكسارات .. وحماية القاعدة امانة في رقبتي ، اعداد الجنود في تناقص ، المعنويات مترهلة وفي ادنى درجة ، انا ادرك ذلك ، ولكن لا مجال للتراخي ، ما لم نقف نحن هنا في مواجهة هذا الزحف ، سيحتل التشاديين الكفره . وربما لن يقفوا دون بلوغ بنغازي .. الوضع خطير .. بل وخطير جداً .. نسبة الهروب تجاوزت 25% ..

ومن هم موجودين غير مؤهلين ، وأبلغت القيادة بالأمر الواقع ، ولا اجد غير الانتظار والترقب .. لهذه الاسباب رفضت الاحالة .

شكرته على موقفه ، وأردفت بالقول .. ما جدوى الاحتفاظ بعسكري مريض ، هل تتوقع انه سيدافع لحظة الشدة ؟

- لا اظن ذلك .. ولكن ما العمل ؟ لا تتوفر لدي حلول بديلة .. هذه الحرب اشبه بحفرة عميقة ، تأكل ولا تشبع .. كم من الرجال ذهبوا ضحيتها .. من خيرة رجال الوطن .. في الجولة الاولى ، وفي هذه الجولة اللعينة .. الآن الامور اكثر سوءا ، مرارة قاتلة ، فرنسا تقارعنا بقوة وفي صدارة الحدث .. وليس لدينا القدرة على المواجهة .. الجيش نفسه يرفض القتال .. ومع ذلك ، نداري ونتحمل وزر ما آل اليه حالنا ، وأخر ما تفتقت به تدابيرهم .. ارسلوا طلبة مدارس .. صغار في السن وغير مدربين لحماية وادي الدوم .. ذهبوا ، وطوت رفاتهم رمال تشاد .

اصغي اليّ يا دكتور .. قم بواجبك كما ترى وكما ينبغي .. اما انا فسأعمل بما يمليه واجبي واستطاعتي ، لحماية قاعدة السارة .. لن يدخل التشاديين القاعدة وأنا على قيد الحياة .. هذا الكلام مخصوص لأجلك .. ولا اريد له ان يتجاوز حدود باب المكتب .. هنا تحدثنا .. وهنا طمرنا .

حديثه كان مفاجأة ليّ بكل معنى الكلمة .. ان تسمع مثل هذا الكلام من جندي او ضابط صغير ، ربما .. اما ان يتحدث القائد مدركا عجزه والخطر المحدق .. هذا خطير جدا .. وللغاية .

ودعته .. وغادرت المكتب ، تنهشني مشاعر مختلطة ، مثقلة بالأسى والحسرة ، والخوف والحذر من المجهول .. ليس في بالي الان العودة للعيادة .. اخترت الذهاب الى خلوة المزرعة .. اناجي النفس .. وانتشي نفحة من اثر روح الرفيق الاشكداوي .. اقضي بعض الوقت في ري ما بذرت يداه .. اعيش لحظات مع ذكراه .. وذكرى اخرون رحلوا .. ولعلني لاحق بهم .

الوقت بين الثانية والثالثة ظهرا ، القاعدة في سبات وسكون تام ، حرارة الطقس حارقة .. اسقي الزرع ، انصت لخرير الماء يتدفق .. اتأمل الجداول ، واري الاشكداوي يؤنس وحدتي .

كنت اخشى الاقتراب من العقيد مفتاح .. هو في تعبيرهم " تيار ضغط عالي " .. ابن عم القذافي .. ومن ذات العائلة .. وها انا اراه يشاركني تخوفه ، ويفضي اليّ اسراره .. غابت تلك الصورة التي رسمتها عنه .. ثقته بي .. حرصه على سلامة جنوده .. تصميمه على الصمود والأوضاع مترهلة .. اكبرت فيه الكثير والكثير .. نعم .. الكل هنا تقتله المرارة والإحباط .

اغترف غرفة ماء من الساقية .. ابلل وجهي وأطرافي .. اخفف لدعة شمس .. ولدعة المصير المجهول .. اتأمل الامتداد الصحراوي المحيط .. وهذه الدشم والطائرات والمعدات .. هل سيغدو مصيرها ذات يوم .. مصير اضعافها في وادي الدوم .. الحيرة قاتلة .. يا الله .. هل ينتظرني مصير رفاقي ؟ .. ام لا يزال في العمر نصيب ؟ .

سيارة قادمة نحوي في هذا الوقت الصامت ، عندما توقفت .. فوجئت ان العقيد مفتاح لحق بي الى هنا .. ام انه اتى هو الاخر يطلب خلوة علاج النفس .. اتجه نحوي .. وبادرته اللقاء والتحية ثانية .

- خيرك بسم الله ،.. قاعد في ها الشفناني هنا ؟! .. شمس عليك .. اليوم بالذات .. حر يطيح الطير الطائر في السماء .

- بيني وبينك يا أفندي .. خرجت من مكتبك ، خطر ببالي ري هذه الجداول اليتيمة .

- مررت على العيادة .. اخبروني بأن لا مكان اخر لك سوى المزرعة .

- ان شاء الله خير يا أفندي ؟!.

- خير .. اردت ان اؤكد لك على ان الكلام الذي دار بيننا في المكتب ، يبقى في المكتب !!.

- اطمئن .. وعدتك .. وعند وعدي .. وما قلته هو ما دفعني لاختيار خلوتي في هذا الوقت .. اذا انت لا تستطيع ان تقول ما يخالجك ، او ان تفعل .. اذن من الذي يستطيع ؟

- زفر زفرة طويلة نفثت من الاعماق .. وكأنه يحمل جبال تبستي برمتها على ظهره .. وقال : " أيه يا دكتور .. بالله خليني ساكت .. واحنا منين .. السنا من هذا الشعب !! الله غالب .. الله غالب ..اللي يتكلم ويقول لا ، يعدي فيها .. ربي يرحمك ويغفرلك يا حسن " !!!

- 32 -

من يقول (لا) ينتهي .. " الله يرحمك يا حسن " .. وهل يخفى .. العقيد حسن اشكال القذافي .. قصة نهايته معروفة ، تلوكها الالسن وراء الاستار ولا تخطئ التفاصيل ، اقرب الشخصيات الى القذافي ، ويقال ان لا كلفة بينهم ، وهو احد الايدي المخلصة له في اوج تعنته وصلفه ، لكنه على ما يبدو قال يوما

ما " لا " وكفى .. فكانت النهاية ، الموت رميا بالرصاص .. وها هو العقيد مفتاح الذي لا يقل عنه قدرا لدى ابن عمه ، صاحب الامر والنهي ، يتحدث بلغة التذمر ، وفي ذهنه نهاية العقيد حسن الذي قال يوما ما .. كفى " لا " .. يردد بحرقة .. انا من هذا الشعب ، ما اروع ما قلت ، وما اقسى ما يصفونك به عنتا ، يخالجك احساس الجموع ، وتتألم بصمت لعمق المأساة .

عدت الى العيادة ، اكثر قلقا من اي وقت مضى ، أيقنت ان القيادة لا تعي ما يجري على الارض ، او ان العجز نخر القلب والأطراف ، والصلف يدفعها الى عدم الاعتراف .

بنينة ينتظر عودتي بقلق شديد ، والكبانية ايضا .. خير انشالله ، ان يأتي العقيد مفتاح الى هنا للسؤال عنك ، وفي مثل هذا التوقيت ؟

- مجرد حالة مرضية اراد رأيي بشأن احالتها .

- " يصير الزلق في الصيف " .. بالطبع .. الانزلاق في الوحل يحدث شتاءا اوآن غزارة الامطار ، الصيف لا مطر فيه .. هذه العبارة التي نطق بها بنينة .. وهو الحاذق بقراءة رموش العين .. ادركت انه احس بتهربي من الاجابة ، وان ما حدث مخالف تماما .. لم تنطفئ رياح الحيرة لديه .. اعاد يسألني .. باختصار " يعني توا يا دكتور .. السي مفتاح تمام .. صافي لبن " .

- اطمئن .. صافي لبن .

دخول الطبيب التشادي غمجة ، منحني فرصة لإبعاد تحريات بنينه ، ويا للمفارقة .. هو الاخر يطلب علاج السعال .. الحال هناك كما هنا ، للأسف نفدت الكمية ، ومراضاة له اخترت بعض الادوية الخاصة بالمعالجات الجراحية ، منحته اياها ، طرب لتصرفي ، ولم يغب عنه التأكيد على حاجة القوات الصديقة الى الاكتفيد .. السعال يكتسح جميع الجبهات .

غادر الطبيب .. وبنينة يطرح موضوعا اخر يؤرقه ، جندي بالإدارة مكلف بمهمة الطباعة ، وحيد عائلة ، والده توفي منذ امد ، باله مشغول بمصير امه وشقيقاته الثلاث ، غيابه عنهم طال اكثر مما ينبغي ، وفي غياب الاتصالات ، يكاد لا ينام .. يتمنى طالما اصبحت العلاقة مع العقيد مفتاح " صافي لبن " .. ان اقترح عليه منحه اجازة .. وهو ما حدث في اليوم التالي .. وسافر على اول طائرة .

توالت الأيام ، وها نحن في الجمعة الاخيرة من رمضان ، مواعظ الخطيب مستقاة من العبر في قصة سيدنا يوسف عليه السلام .. عادت بي الذاكرة الى قريتي النائية بالجنوب الليبي ، ومقاعد الدراسة الابتدائية ، العام الدراسي 1972 - 1973 م .. اثنين من اساتذتنا كانوا من غزة بفلسطين ، غادروا غزة في حرب

الايام الستة عام 1967 م .. عام النكبة او النكسة ، او الهزيمة الماحقة وضياع الضفة الغربية ، مرتفعات الجولان السورية ، شبه جزيرة سيناء .. لجئوا الى مصر ، وانهوا دراساتهم هناك ، واختاروا التدريس بليبيا .. كانوا متنورين ، عاشوا معنا وبيننا ، تعلمنا منهم الكثير ، وفتحوا افاقنا على مجالات لا معرفة لنا بها ، المسرح ، الشعر والنقد ، القصص القراني ، ولم تغب قضية فلسطين ومآل اللاجئين عن شروحاتهم .. الاستاذ " محمد" شرح لنا سورتي " الكهف" و " يوسف" .. العبر الكامنة وراء كل موقف ومشهد ، كنا نرافقه وهو يتمشى وسط مزارع النخيل ، وفي ركن ظليل نتحلق حولة ، نستمتع بأحاديثه .

مواعظ خطيب الجمعة اعادت تلك اللقاءات وما حوت من عبر .. سيدنا يوسف الفتى الوسيم .. رؤياه الشمس والقمر لي ساجدين .. نصح ابيه النبي يعقوب عليه السلام بأن لا يروي رؤياه لإخوته .. مَكَرَ الاخوة وحَسَدَهُم له .. قصة الذئب والدم الكذب .. تدخل العناية الالهية وإنقاذه من الجب .. مقامه عند عزيز مصر .. قصته مع زوجة الملك .. استعصم .. دخل السجن .. اعتراف امرأة العزيز وقد حصحص الحق .. براءته وتمكينه من خزائن مصر .. عودة اخوته قافلين .. أخيه الصغير ودسيسة سرقة صواع الملك .. سيدنا يعقوب وحزنه لفقد ابنه .. صبره .. صبرا جميل والله المستعان .. طلبه المغفرة لهم

على فعلتهم .. عود الابن الى حضن اباه .. وقد ارتد اليه بصره .. وبطل كيد الكائدين .

يبدو ان مواعظ الخطيب .. وحديث الرؤيا خلق مناخا مشبع بالأحاديث عن الاحلام والرؤى .. من رأى انه عاد الى أهله .. ومن حملت رؤياه اجتياح القوات التشادية للقاعدة .. وعند الرؤيا الاخيرة .. هجعت الاصوات .. تفاءلوا خيرا .. تجدوه .

بنينه يسخر من صاحب رؤيا الاجتياح ، " اتظن انك من آل يوسف " .. ما تقوله ، اضغاث احلام .. ماذا فعلنا كي ننتهي الى ذاك المصير المشئوم الذي تعدنا ؟

رئيس عرفاء " القنطري" .. له تأويل اخر لما يحدث ، ويرى انه ذو علاقة بما شاهده في حرب تشاد الاولى عام 1981 م .

- وماذا شاهدت ؟ عقب المجموعة بصوت واحد .

- المولى عز وجل لا يظلم احد ، وما كان بظلام للعبيد .. كنا في منطقة " ازوار " ، جيش مجحفل بترسانة الموت ، مدفعية مختلفة الانواع ، رشاشات خفيفة ومتوسطة ، عربات صواريخ الجراد .. الي غير ذلك .. وذات يوم قتل احد الجنود الليبيين في اشتباكات كر وفر ، اشتاط الجميع غضبا ، وكانت

بجوارنا قرية صغيرة يعتقد ان المهاجمين مروا من هناك ، عشش متناثرة بسفوح الوادي ، اشجار الاتل ، وبعض اكواخ الطين والقش ، اناس بسطاء فقراء عزل .. آمر السرية فقد توازنه ، أمر حظيرة صواريخ الجراد بقصف القرية .. " تقلدوهم هالعبيد " .. وبدأت الراجمات بالقصف ، وحمم النيران الملتهبة تتساقط وتحرق اكواخ القش ، علا صراخ الاهالي ، تبعثروا فزعين كل في اتجاه ، نساء ، اطفال ، شيوخ ، يهرعون ويصرخون ، حيواناتهم ايضا ، الماعز والإبل ، كل ما كان حي بالمكان ظل طريقه وفر .. كنت انظر باستياء شديد لما يحدث ، ولا احد نبس بكلمة توقفوا ، او ان ما تفعلونه لا يرضي الله .. وآلمني ان البعض كان يقهقه بسرور .. وأكثر من ذلك ، بلغ بأحدهم الهوس - " طير شر " - وراهن على ناقة لقحة لم تقوى على مقارعة القطيع الهارب ، وما اذا حوت بطنها حوار ام بكره .. صوب رشاش نحوها ، وأمطرها بوابل من الرصاص ، تمايلت يمينا وشمالا ، ووقعت صريعة الموت ، ترغي والدماء تنزف .. تاقت رعونتهم وفضولهم لمعرفة ما في بطنها .. وعندما وقفوا عندها ، وجدوا صغيرها الذي دفعت به الى الحياة في سكرة الموت ، بكره ، لكنها ماتت هي الاخرى .. وبينما هم في غيهم ، حضر شيخ مسن ، صاحب الناقة .. يعدو ويعرج ويصرخ ، وعندما تيقن له فقد ناقته .. جلس جوارها كليم حزين ، وقال لهم " هرام .. هرام " .. حرام .. ورفع يديه للسماء يدعوا ربه .. " هذا الله بس

.. الله بس .. الله بس " .. الشكوى لله الواحد الاحد ، ناصر المستضعفين في الارض .

في صباح اليوم التالي تعرضنا لهجوم من قبل مجموعات الكر والفر ، لم تحدث اية اصابات او اضرار ، سوى اصابة واحدة ، رصاصة حارق خارق ، مزقت جمجمة ذاك الجندي الذي قتل الناقة .. وتناثر دماغه اشلاء .

لحظات وجوم واسى سيطرت على المكان ، المجموعة تنظر لبعضها البعض وتعيد النظر ، لعل منهم من يراجع ما اقترفت يداه في هذه الحرب الظالمة ، يستنكرون فعلة الجندي البشعة .

هنا وقف " بنينه" الذي لا يطيق صبرا في مثل هذه المواقف ، قال بصوت عال .. " اسمعوا يا جماعه .. وقولوا قالها بنينه ..والله والله .. كل ما فعل الليبيين في تشاد صاير في ليبيا .. كيف زمان .. كيف توا .. عاجلا .. وأجلا " .

- 33 -

انقضت مدة الندب المقررة للعمل طبيب بقاعدة السارة العسكرية ، قلب الصحراء الليبية ، وعلى مقربة من الحدود التشادية .. لكن البديل الذي سيحل

مكاني لم يأتي بعد .. اجدني صرت الى ما صار اليه معظم المجندين هنا ، طال غيابهم عن اهلهم ، والبديل المناوب لا امل في قدومه .. ما زاد من حالات الهروب التي ارتفعت الى اكثر من 30% .. خصوصا بين كتائب منتسبي الخدمة الوطنية .. وها هم يقتلون الوقت والروتين اليومي الممل ، البعض يجد في لعب الورق " الكارطة " مسليا وملاذا .. وآخر في النوم ومؤانسة الرفاق .

لم ينال مني التذمر حظه الوافر .. ارى جنود يشتاقون لرؤية ذويهم وقد مضى على وجودهم هنا اكثر من ستة اشهر ، والأمل في وجود البديل اصبح شبه معدوم .

الحياة هنا اشبه بالإقامة في سجن كبير ، اسواره الصحراء الشاسعة .. لا مجال للهرب .. الاستماع الى الراديو اصبح ديدني ، موجات الاثير تنقل اخبار الهزائم وتخبط الجبهة الداخلية ، وهو ما يجهله اكثر من 95٪ ممن يتواجدون بالمكان هنا .

العلاقة مع العقيد مفتاح أصبيع ، آمر القاعدة اصبحت اكثر حميمية ، وفي كثير من الاحيان يختار المرور على العيادة لتمضية الوقت وقطع الرتابة ، الثقة المتبادلة تجمعنا بعدما افضى لي بما لا يقال .. وذات يوم طلب مرافقتي له في

جولة داخل القاعدة .. يسألني ونحن نتفقد المواقع .. ألم يأتي البديل المناوب عنك ؟

- للاسف .. لا .

- آه .. ضحكوا عليك ! .. ابقى معنا ، عيد الفطر على الابواب ، نحتفي سويا بالعيد .

- كنت انوي العيد قرب الوالدة والأهل .. وإذ لا مناص .

- كلنا اهل يا دكتور .. وفي الهَمْ سواء .. دعنا من هذا عسى ان يأتي البديل ، اريد ان اسألك عن الجنود ، وما اكثر ما يضايقهم ، انت اقرب اليهم مني .. اريدك ان تحكي لي بصدق وصراحة تامة .

- طالما اشترطت الصدق .. الجنود والضباط لا فرق ، يشعرون بالامتعاض من وجودهم هنا في هذه البقعة المنعزلة عن العالم .. لا احد منهم يريد الحرب ، او المشاركة فيها .. حرب تشاد بالنسبة لهم حرب خاسرة ، ومحرقة لا تستحق التضحية .. وإذا كنت تتوقع اجتياح التشاديين للمكان في اي لحظة كما اسلفت لي سابقا ، فلا تعتمد على ان لديك من يحمي المكان .. كنا في ذلك الوقت على مقربة من مدرج المطار .. سمعنا صوت قوي .. ادرك مصدره .. وقال : هذه طائرة " تي يو " .. قاذفة قنابل ، يمكنها الطيران لمسافات بعيدة .. وما هي إلا

لحظات وحطت الطائرة بالمدرج .. ثم أردف ، يا حسرة على الطائرات التي خسرناها في قاعدة الدوم .. مئات الملايين ذهبت ادراج الرياح .. " دخان سحور " .. قالك " سير ولا تهتم " .. هذا ما يحدث بالتمام والكمال .. نسير ولا ندري الى اي وجهة نسير .." وين توصل توصل " .

اذن انتهى الزمن الذي كان يسمح لنا فيه بأن نحلم . ما من علاج ، وكلنا نعرف ذلك .. انهينا الجولة وعدنا الى بهو الضباط ، بادرني .. اتصل بأهلك .. هذا هو الهاتف امامك .

- شكرًا أفندي .. لا داعي .. اصر اكثر من مرة .. يقدم لي سماعة الهاتف .. خذ تحدث مع الوالدة .. طمئنها عنك .

- كان سبب اعتذاري .. انني شاهدت معظم الجنود هنا يتمنون الاتصال بذويهم ، وجلهم لا يمتلكون هواتف ارضية بمنازلهم ، وآخرون سئموا انتظار طابور الهاتف الذي يمنح لهم لوقت ضئيل جدا .. وقلما يوفق احدهم بالتواصل .. وأمام اصراره .. قبلت .. ووجدتها فرصة لإخباره بأن الجنود يتمنون ان تعطى لهم فرصة الاتصال بذويهم .. وأنهم متضايقون من الامر .. ساعتان في اليوم .. ومكالمة لا تزيد عن دقيقتين .. ومعظمهم يستدعي اتصاله توسط الجيران او اقرب منزل به هاتف ، وموعد مسبق .

كانت استجابته مباشرة .. أصدر أمرا عبر الهاتف الى عامل البريد .. تخصيص هاتف لتواصل الجنود طوال النهار والليل .

شكرته على موقفه واستجابته .. وفي لحظة مغادرتي .. قال لي .. لا تكترث دكتور .. " عليّ اليمين " .. اذا لم يأتي البديل عنك قبل موعد العيد .. تنقلك طائرة وتحط بك امام منزل العائلة .!!

عدت الى مقر سكناي .. بنينه كعادته ينتظر .. سؤاله المعهود .. طال غيابك .. اين ؟!.

- صحبة العقيد مفتاح .

- امنم .. يبدو ان الافندي وضع خطين تحت اسمك .. عسى القادم خير .

- عسى .. كانت فرصة للحديث معه حول معنويات الجنود ، ما يضايقهم ويقلق بالهم .

- معروفة " بلا فقيه " .. المعنويات صفر .. زيروووا .. " شايطه في الكبوط " .

- لا تقل هذا .. وللعلم صدرت تعليماته بتخصيص هاتف لتواصل الجنود بذويهم طوال اليوم .. ليل ونهار .. وهذه خطوة جيدة منه .. وأنا الاخر ربما

اغادر قبل حلول موعد عيد الفطر .. وعدني بذلك حتى في حال عدم وصول بديل .. واقسم عليه .. وابلغني كذلك ان العقيد " محمد العباس" سيعود من المأمورية ويستلم مهمة آمر القاعدة .

هلل بنينه كثيراً لخبر رجوع العقيد محمد العباس .. وعاد يتحسر لحاله .. انتم الاطباء تأتون هنا لمدد محدودة قصيرة .. اما نحن المحسوبين قوات وجيش ، فلا ندري الى متى سنبقى قابعون بهذا الخلاء القاحل .

- لا عليك بنينة .. انا الاخر لا يبدو ان البديل قادم في الوقت القريب .. كلنا في الهم سواء .

- ايه .. انت " دابين زقزقه يمين .. زوي من تو " .. العقيد مفتاح صحيح انه متعالي " يطنقش " ،.. لكنه رجل يقول ويفعل ، وطالما اقسم اليمين .. سينفد وعده .

- 34 -

مشاهد كثيرة لم ترق لي ، تعذيب مجند رفض القيام بالخدمة الشخصية لضابط .. اعداد الطعام ، وغسل الملابس .. الخ .. الاشكداوي الضابط النجيب المهذب الذي تاه بالصحراء وزميلة ، ولم يجدوا من ينقذهم ، واكثر من ذلك

الامتناع عن تبليغ ذويهم خبر الوفاة .. الغياب والهروب من الخدمة كلما سمحت الفرصة لأحدهم .. لكن الحياة داخل ثكنة عسكرية ، وسط جيش المجندين ، علمتني الكثير من الاعراف المعتمدة لديهم ، بل والمفردات المستخدمة .

" الجمع " .. الف باء الحياة العسكرية ، جمع صباحي ، واخر ليلي ، وفي احيان استثناء بلا موعد .. اصطفاف جميع المنتسبين ، حصرهم فردا فردا ، وإبلاغ القيادة بمن حضر ، ومن ادرج في قائمة الغياب والهروب .

" مجلس" .. مفردة أخرى .. توحي باجتماع عدد من الناس لمناقشة امر ما ، او تداول حوار فيما بينهم .. بينما المقصود بها ، التحقيق مع مجند او ضابط حول قضية مخالفة للأوامر والأعراف العسكرية .. وإصدار العقوبة المناسبة للجرم المقترف .

" كتاب " .. اكثر المفردات التي ابهجني سماعها .. ففي هذا المكان المنعزل الذي يقطنه اكثر من 2000 انسان في العادة ، لا توجد مكتبة ، ولا كتاب .. وعندما سمعت المفردة اول مرة على لسان احد الكبانية ، يفيد بأن كتاب قادم .. وبدا لي شغفهم بوصول الكتاب .. توقعت ان القيادة تنبهت لخلاء المكان من الكتب .. حتى انني طلبت من النقيب عبدالسلام ان يتذكرني فيما لو وصل

كتاب ، اي كتاب كان ، رواية ، شعر ، تاريخ ، جغرافيا ، او حتى عن السحر والتنجيم .. لكنه استغرب طلبي .. سألني : عن اي كتاب تتحدث ؟

- سمعت ان كتاب قادم ، والجماعة ينتظرون وصوله .. اريد قراءته .

- لكنه قد يحوي تعليمات ومعلومات سرية لا تخصك .

- اي تعليمات ؟ اريد كتاب اقرأه .

- ابتسم وقد ادرك ما عنيت .. لا يا دكتور .. في الجيش مفردة كتاب .. تعني رسالة تحمل تعليمات جديدة .. الحديث عن الكتب والقراءة انتهى منذ زمن بالمؤسسة العسكرية .. كان ذلك عندما كان لدينا جيش وقادة مهرة ، وتأهيل محترف ، اما الآن كما ترى .. يلاحقون الشباب في الشوارع ، ويقيمون البوابات على الطرقات لاصطيادهم ، ومن ثم يزج بهم في معسكرات تدريب لأسبوع او اثنين ، " جيش يس يم " .. ومنها الى الجبهة ، والالتحاق بمحاور القتال ، وإذا مات يترك مكانه ، وان كتبت له الحياة يساق الى المحور الذي يليه .. وهكذا .. انتهى زمن الكتب والعلم والمعرفة .. كل شيء " دمغي " كما يقولون .. اجتهاد بلا دراية .

النقيب عبدالسلام من القلة المثقفة داخل المؤسسة العسكرية .. تعودنا نقضي وقتا ممتعا .. وفي غالب الاحيان المسألة الليبية والى اين ، تستحوذ على القدر الاكبر من الحديث .

في خلوتنا ببراح الصحراء .. تحدث بأسى عميق .. عن ما آلت اليه الاوضاع ، والخطر المحدق بنا .. يكرر العبارة .. الوضع خطير .. خطير للغاية .. كل ما تراه الآن يعد انتحار حقيقي .

- الهذا الحد ساءت الامور !! ..

- نعم .. واكثر .. اخبرني احد الضباط الكبار الذين لهم اطلاع اكثر بخفايا الامور .. انهم هددوا العقيد محمد قائد معركة " فادا " بالمحاكمة عسكريا وبعقوبة الاعدام ، فيما لو قرر الانسحاب ، لقد خيرهم بين امرين والمعركة حامية الوطيس ، اما الدعم الفوري للقوات ، او انه سيصدر امرا بالانسحاب .. لكنه لم يخشى تهديدهم ، وفي اللحظة التي شعر فيها انه يجازف بجنوده في معركة خاسرة ، اصدر امر الانسحاب انقاذا لأرواحهم .. وفضل محاكمته وإعدامه على تعريض جنده لموت محقق .

يضيف في محاولة للفضفضة بما يضيق صدره .. يا دكتور .. الوضع كارثي بمعنى الكلمة .. أصبحوا يرسلون اي شخص تطاله أيديهم الى الجبهة ..

لا يهم ان كانت له معرفة بالحرب ام لا .. يكفي مثال طلبة المدارس .. هولاء لا يقيمون وزنا الى أرواح البشر .. وكأن الجنود هم جيش العدو .

- انا ايضا تحدثت مع العقيد مفتاح عن تذمر معنويات الجنود .

- العقيد مفتاح مدرك للازمة .. عسكري محترف وشجاع .. لكن مصيبتنا في القيادة العليا .. " فوق " . اشعل حربا واحترق بلظاها .. لم يجد ما ينقده من الورطة ، فأصبح يزج بكل من هب ودب الى الجبهات .. اعتقادا منه ان ذلك سيغير كفة الحرب .. شباب ذهبوا وقود لهرطقات احلامه .. السياسة نباهة في اختيار اهون الشرور ، وفي معرفة اقناع الرعية بأن أي قرار هو عمل منجز .

هم دائماً كذلك عبر التاريخ .. مجرمون قتلة .. شهدت في حرب لبنان .. أمراء الحرب .. وكيف يوظفون الوطنية والدين من اجل تحقق أوهامهم وأحلامهم الشريرة .. تجار سلطة .. كاذبون .. جميعهم كاذبون ومرضى .. لا يرون الا أنفسهم .. ولا يهمهم من ذهب ضحية ذلك .. ولا عدد الضحايا .

- 35 -

لا اجد اجابة شافية تخفف وطأة المعاناة هنا .. ينزع عن عيني النوم .. تصورهم بلا حماية .. جنود مأمورون بائسون .. وضباط حائرون .. وحجج واهية تروج لسلعة الحرب والموت .. حماية ودعم القبائل العربية بشمال تشاد .. نشر الاسلام بإفريقيا .. ازاحة الحاكم المسيحي في تشاد .. نشر الفكر الاخضر ليعم ارجاء افريقيا .. الوحدة الافريقية .. دحر الامبريالية والاستعمار الغربي المتجذر في افريقيا .. استعراض قوة الجيش الليبي ومنح ليبيا هيبتها بين دول الجوار والأمم الافريقية .. مخزون اليورانيوم في جبال تبستي .

لك ان تختار من الشعارات الفضفاضة ما تريد .. توحيد افريقيا مختلفة الاعراق والأديان .. ولم تتحقق احلام الوحدة العربية ، ولا حتى وحدة الوطن الممزق الى انساب وقبائل .. نشر الاسلام بلغة الرصاص .. فرض الكتيب الاخضر الذي ارهق المسير ، وأجهض المصير .. دحر الامبريالية والاستعمار ، والتفاوض مع فرنسا على تقاسم الهيمنة على دولة جارة عند خط 16 شمالا .. اتهام الغرب الاستعماري بنهب ثروات افريقيا ، والسعي الى نهب اليورانيوم من جبال تبستي .. دعم القبائل العربية التي هاجرت الى تشاد هروبا من بطش المستعمر ، وتمتعت بحسن المعاملة والقبول ، ووصل ابنائها الى مراتب الحجاب

والوزراء ، بإلقاء القنابل والصواريخ على دولة الضيافة والإيواء .. ازاحة حاكم بلد مجاور عن سدة الحكم ، والتغني برفض التدخل في شؤوننا الداخلية .. القنبلة بدلا عن كتاب .. والبندقية بدلا عن قلم .. هذا ما انتظرته دولة الجوار الفقيرة منا بعد ان حبا الله بلادنا بثروة لم نحسب لها حساب .. وفي العمق .. هدرت الارواح والثروات .. لأجل تحقيق طموحات طوباوية تسعى للزعامة .. تضخم الانا وقد بلغ مداه .. ذلك مما لا يقال ، ومن غير المعلن ، او المسموح بنشره على الملأ .. ومن تشاد سنحرر فلسطين .. شبرا شبرا .. من النهر الى البحر .

لعنة النفط .. المال عندما يقع في ايدي لا تحسن التصرف طامة كبرى ، وكارثة مقيتة .. ماذا خلفت حرب تشاد .. حقد دفين لا ينضب بين دولتين جارتين .. وشعبين شقيقين .. ولأول مرة في تاريخ العلاقات .. ما كان الخطر على ليبيا يوما .. قادم من الجنوب .. دائما عبر التاريخ من الشمال .. الرومان .. الاغريق .. الاسبان .. فرسان القديس يوحنا .. الاتراك .. الطليان .. دول الجوار كانت الحاضنة للهجرات الليبية اوقات الازمات .. من الحروب الى القحط والفقر .

الدول تبنى بالمعارف .. الامن والسلام .. الصناعة .. الزراعة .. المعارك الحقيقية تخاض في اروقة الجامعات .. ضد العدو الاول .. الجهل .. لقد عاني

الشعب الليبي الكثير والكثير عبر 42 عاما .. عاش خارج دائرة الزمن والتاريخ .. ذلك مما يثير الاسى والغثيان .

دعنا من هذا كله .. انا انتظر البديل المناوب .. ولا اخبار عن بديل ولا بدائل .. القرار ليس بيدي .. والمصير رهين ما تجود به الايام المقبلة .. او الشهور والسنوات .. في هذه البلاد .. الزمن لا قيمة له .. ومنذ ان صعدت سلم الطائرة في بنغازي .. لا املك قرار نفسي .

تذكرت صديقي الدكتور حسين الذي قُبِض عليه اثناء وصوله الى مطار طرابلس عائدا من رحلة علاجية في المانيا ، ومن هناك .. الى دهاليز معتمة لا يعرف لها قرار .. كان هو الاخر يعتقد ان بقائه وراء القضبان لن يطول .. يوم او يومين .. لم يسبق له مطارحة لعبة السياسة ، فقط عندما اتهمه المحقق بالانتماء لجبهة الانقاذ المعارضة للنظام .. انكر التهمة وكان صادقا .. لكنهم ذكروه بمن جالس في مقهى عام بمدينة برلين الالمانية .. نعم شخص ليبي التقيته .. لقاء ابناء وطن واحد في بلاد الغربة .. تجاذبنا اطراف الحديث .. بعد اربع جلسات تحقيق ، امر كبيرهم جند الحراسة .. اعيدوه الى زنزانته ، وفي الصباح اشنقوه .. انهمك في تلاوة القران .. وانتظار الصباح .. ظل ينتظر .. مضت الايام والشهور .. وذات ليلة ابلغوه خبر الافراج صباح الغد .. سألهم ..هل

يمكنني معرفة السبب الذي اعتقلت من اجله ؟ او الجريمة التي اقترفتها ؟ .. رد السجان (أسمع سلم خوي .. فكك من كثرة السؤال .. وما عاد تعاود صنعتك) .

قال محدثا نفسه .. لقد مضى من العمر اربع سنوات وراء القضبان .. آه .. لو اعرف صنعتي التي فعلت كي لا اعيدها .. عاد بعدها الى العمل .. طبيب .. ولكن .. لا كما قبل الاعتقال .

جال بخاطري قصته والانتظار .. وموعد الافراج .. ومتى ؟ يخيل ليّ ان انفكاكي من هذا المكان يشبه الى حد ما انفكاك صديقي حسين . قد يكون بعد يومين .. وقد يستغرق سنوات .. قد نعود يوما ما الى اهلنا .. وقد تكون النهاية التي اغترفت رفاقنا قبلنا .. ولا تزال .

في احدى الليالي .. طال سهري وأنا اتابع اخبار العالم عبر موجات الاثير .. وقعت على اغنية بإذاعة الشرق الاوسط هزت مشاعري ، وراق لي سماعها :

سلامات سلامات سلامات

يا حبيبنا يا بلديات

شوف سافروا معاك كام واحد

ما وحشناش منهم واحد

لا لا لا ده انته وحشتنا بالذات

تسوى ايه العيشة بعيد

وانت فيها غريب ووحيد

ان لقيت في الغربة المال

فين هتلقى راحة البال

يا ابن بلدي صدق من قال

ما في شيء عننا يغنيك

شوف سافروا معاك كام واحد

ما وحشنا منهم واحد

لا لا لا ده انته وحشتنا بالذات

هجرت ايه ؟ اللي تخليك

تنسى ناس بيدوبوا فيك

أي بعد بين الاحباب

مهما كان حلو الاسباب

برضه فيه في النفس عذاب

وانتظار على نار بتقيد

سلامات سلامات سلامات

حضر بنينه .. ولاحظ سمري وهيامي مع الاغنية .. سألني .. وكأنك يا دكتور انضممت الى جماعة الاكتيفيد .

- الله يسامحك .. مجرد الاغنية هزت مشاعري .. لا اكثر .. رحلت بي الى مواطن الاهل في قريتي النائية " تمنهنت" .. ذكرتني باسرتي واهلي وناسي الاقربون .

بعدها بلحظات سمعت صوت رصاص بجواري .. وابل قريب جداً .. انتفضت على عجل .. توقعت وصول التشاديين .. وجدت بنينة يحمل بندقية كلاشن .. سألته ماذا جرى ويجري .

- لا شيء .. فقط عندما وجدتك منهمك بسماع الاغنية .. تشتاق رؤية العائلة .. لم اجد بما اشاركك شجونك .. اطلقت مخزن رصاص في الهواء الطلق .

- يستر الله يا بنينه .. لم يمر وقت بعد على تخلصنا من ازمة البندقية 12455 .. ليس هذا وقته .. عسى تسير الامور بسلام .

- 36 -

انزعجت مما فعلة بنية ليلة البارحة .. اطلاق رصاص والأصابع على الزناد تترقب .. توقعت ان يفتح تحقيق في الصباح ، ما لم يقبض عليه في الحال .. الرماية كانت على مقربة من غرفة العمليات مسافة مائة متر .. ظللت اسأل رواد العيادة .. ما اخبار القاعدة ؟ .. لا احد تطرق لإطلاق نار .. حتى النقيب عبدالسلام عندما حضر سألته .. يقال ان اطلاق نار حدث ليلة الامس ، اجابني لا وجود لهكذا اخبار ، اطلعت على الاوامر اليومية ولم اعثر على الخبر .. سألت .. تحريت .. لا خبر .. قلت في نفسي " شكشكي " .

في الفترة المسائية حضر الطبيب " غمجه " رفقة مريض من القوات الصديقة .. انهيت الفحص والمعالجة .. سألني " غمجه" .. ممكن دكتور انا يكلم بروها ؟ .. لوحدنا .

- لا مانع .. وانتحينا جانبا .

- شنو فيه اليوم في القاهدة ... اليوم في صبه فجر .. فيه صوت رصاص ؟

تعجبت .. وأنكرت المعرفة بأي شيء .. وان لا وجود لإطلاق رصاص .

هالني ما نحن فيه .. وازدادت مخاوفي .. لا احد من القوات الليبية على علم .. بينما القوات التشادية الصديقة القابعة في الاطراف سمعوا اطلاق الرصاص .. وان كنت لا اشعر بالارتياح في وجودهم طرف القاعدة ، وتمتعهم بالحركة داخلها .. شاركني توجسي النقيب عبدالسلام .. هو الاخر لا يثق بهم .. وما حدث في وادي الدوم كان يجب ان يكون درسا .. لكنه اضاف .. القيادة العليا تعرف ، ويصرون على بقائهم بيننا .. " ما يشعفوا " .. لا يتعضوا .

قضيت الليلة استمع الى إذاعة " صوت الوطن العربي " .. عسى تأتي على ذكر شيء عن وادي الدوم .. الضحايا والمفقودين .. شيء يشبه الانفصام الاعلامي .. او الوطني .. ترويج اكاذيب لا علاقة لها بالحقيقة .. والبقية استقبالات وبرقيات تأييد ووثائق عهد للصقر الاوحد .. وشعوب المعمورة تتقاطر .. رؤساء ووزراء .. ومثقفين ومتمردين .. تنهل من خزائن الدولار .. وتسبح بحمد بائع الأوهام .

في الموجز الاخير للأنباء .. تغيير المناهج بالمدارس الابتدائية بما يواكب العصر ، مستنيرا بالفكر الاخضر سبيل البشرية لتنعم بالرخاء والمحبة والسلام

!! .. ومنه منع تعليم اللغات الاجنبية .. وتحطيم الالات الموسيقية .. وحرق الكتب التي لا تنسجم واطروحاته .. ويا لها من ديمقراطية .. تؤسس لجيل غضب .. حينها قال المرحوم الدكتور عمر الشيباني .. " أنكم تبنون جيلا سيدمر نفسه ، قبل ان يدمر العدو " .

- 37 -

التكيف مع الواقع بات العنوان .. ثمة يقين بدرجة 100% عن قرب اجتياح القوات التشادية للقاعدة .. وهو ما لم اعد اراه مستحيلا .. فما حوت قاعدة وادي الدوم المسيجة بالألغام ، من اسلحة خفيفة وثقيلة ، دبابات وطائرات قاذفة .. وصواريخ .. لم يقف حجر عثرة في وجه قوات شبه راجلة ، تمتطي عربات تيوتا ، سلاحها بنادق ورشاشات .. وفي سعات قلية تمت السيطرة على القاعدة .

تزامنت الهزائم مع انهيار اسعار النفط .. ذهب رصيد سنوات الوفرة في التسلح والحروب ودعم جبهات التمرد .. سعر برميل النفط من اربعون دولار عام 1981 .. انخفض الى سبعة دولارات عام 1987 م .. الحرب تشتعل اوارها والهزائم تتوالى .. وبدأت سياسات جديدة تنتهج .. اكثر تقشفا .. المرتبات تتأخر لأشهر .. رعاية اسر الشهداء والمقاتلين في الجبهات .. والرابضين في الثغور ..

ترهلت وتوقفت .. الفاقة والعوز والاحتقان بلغت مداها .. وحالة الانكار والهروب الى الامام تلتحف بشعارات جوفاء تفصل ليل نهار .. عجلت التنمية المتوقفة منذ امد .. طمرت وترهلت كما البنية التحتية .. استنزف المجهود الحربي كل شيء .. ارفف مجمعات الاسواق خاوية .. واستشرى الفساد الذي عم مؤسسات الدولة الكرتونية منذ عام 1977 .. والزحف والمداهمات .

هنا بالقاعدة زاد عدد المترددين على العيادة من القوات " الصديقة " ، معظمهم يعاني امراض " الصّفير" ، الاسهال والنزلات المعوية ، اضافة الى تفشي السل الرئوي الذي اعتاد الطبيب غمجة على طلب العلاجات المضادة له وبكميات وفيرة ، وأمراض اخرى غامضة لم اقوى على تشخيصها .. عندها قررت زيارة مخيمات القوات .. عددهم يقارب الالف مجند .. وفي وجوههم الكالحة ، وأجسادهم النحيفة ، وحركتهم الهزيلة ، تقرأ الفاقة والضنى .. هياكل عظمية تمشي على الارض .. عظام يكسوها جلد .

الطبيب " غمجه" سعى لعزل الحالات صعبة التشخيص .. وخصص عدد اثنين من الجنود فقط لرعايتهم .. وأفادني بأنهم دفنوا بالأمس اثنين منهم .. جميعهم مسلمين .. حريصون على الصوم ، بما فيهم من يعاني الالم الشديد . . خمنت ان تكون بعض الحالات تعاني الالتهاب الكبدي .. وهاجس الايدز ايضا لم

استبعده .. كان قد غمر افريقيا في تلك الفترة .. وذلك ما كان يخيفني اكثر .. ومن باب الاحتراز الوقائي ، وخشية انتقال العدوى .. طلبت من الطبيب غمجة ان لا يأتي للعيادة بمرضاه . ووعدته بأنني سأتولى زيارتهم بالمخيم .. بصورة يومية .

لم يبقى سوى يومين من شهر رمضان .. تلاشى حلم قضاء العيد مع الأهل ، ولا شيء يخفف الغربة ، وارق الفكرة ، سوى اولئك الجنود المتزوجون .. كان كثير منهم يأمل منحه اجازة لقضاء العيد بين اطفاله وأسرته ، وان يتفقدهم ، ويرافقهم لشراء ملابس العيد .. كانوا يتحسرون كمدا .

زاد من حسرتي احد الجنود المترددين .. سرب لي خبر يخشى افشاؤه .. ضباط يستغلون لحظة قدوم الطائرة .. ويرسلون لذويهم كميات من التموين المخصص للقاعدة .. لحوم .. زيتون .. اجبان .. حليب .. وكل ما تجود به دشم التموين .. قلت في نفسي .. يا الله .. لا زلنا في شهر رمضان .. كيف يجرؤون .. لم افضل تصديقه .. رد قائلا .. عندما انتهي من شحن السيارة غدا ، سأمر من هنا ، لتري بعينك .. طلبت منه ان لا يأتي .. ويتركني وشأني .

- 38 -

اليوم آخر ايام شهر رمضان .. حضر للعيادة الرائد ابراهيم .. من وادي الاجآل بالجنوب الليبي .. بلدياتي .. يشتكي ارق وسهاد .. يستدعي النوم ويستعصي .. يعاني اضطراب نفسي اكثر مما هو عضوي ، يتلعثم لسانه في اظهار الكلمات .. يريد ان يفضي لي بما يؤرق لواعجه ، تختنق العبارة .. ثم سألني : أليس نحن بشر مثل بعضنا البعض ؟

- بالطبع .. وهل في ذلك شك ؟

- نعم .. وهذا ما حدا بي للاستئناس برأيك .

كان وقت دوام العيادة قد انتهى ، اقترحت عليه ان نذهب سويا الى المزرعة ، وهناك نقضي بعض الوقت ، ونستكمل حديثنا .. ووافق .

وصلنا المزرعة .. جلسنا تحت ظل شجرة نخيل .. وتركنا الماء ينساب بالساقية يروي الجداول .. وانطلق يسرد معضلته .

يا دكتور .. انا عسكري ، قضيت شبابي في خدمة الوطن كما اعتقد ، أهلي وأسرتي ليبيين أباً عن جد ، نسبي يعرفه القاصي والداني .. هل يعقل بعد كل هذا ان ينظر اليّ بعنصرية مفرطة ، وأصنف عبد دليل لمجرد انني اسمر

اللون .. ذلك ما حدث ، فقد ثم الحاقي بما اطلق عليه : " اللواء الاسمر " .. لقد صدر كتاب من القيادة العليا يأمر بتشكيل اللواء منذ اكثر من عام ، يضم منتسبي القوات المسلحة من ذوي البشرة السمراء او السوداء .. لواء الليبيين سود البشرة .. لواء العبيد .. هذا اخر ما انتجت ذهنية مفرطة في التعالي والعنصرية .. ابناء الوطن الواحد ، منهم الاحرار ، وآخرون عبيد .. انا اشرف منهم .. اقدس تعاليم ديني وأخلاق اهلي وعشيرتي ، احكم ضميري في كل خطوة .. اتفحص مكامن الخطأ ، واستهدي الصواب .. هل تعرف منطقة تدعى " ام العبيد " ؟

- نعم اعرفها .. على مقربة من الزيغن بوادي البوانيس .. واهل الزيغن هم عشيرتي .. 50 كم فقط تفصل بين قرانا .

- هناك في ام العبيد انشئوا معسكر حول القلعة الايطالية القديمة .. في موطن يقع بأحضان الصحراء .. وأرادوا لنا التمركز هناك .. نحن الليبيين سود البشرة .

-. لماذ اختاروا اللون الاسمر ؟!.

- متطلبات حرب تشاد .. طالما ان معظم التشاديين سمر البشرة ، فمن باب التمويه حسب قولهم .. وحتى لا يقال ان ليبيا تتدخل في شؤون تشاد .. معركة

السود فيما بينهم .. او الافارقة فيما بينهم .. لكنني سمعت احدهم ، وهو من القادة ..يقول : " عبيد ضد عبيد .. فخار يكسر بعضه .. ان شاالله لا نجا اي منهم " .

اصبحت احتقر نفسي .. والرتبة التي احملها .. والخدمة العسكرية .. وحظي التعيس الذي ساقني للانخراط بصفوفها .. أشعر بأنني فاقد القيمة كانسان ، وكمواطن ليبي في بلدي .. انظر الى الضباط بيض البشرة وارى في عيونهم انهم احرار ، اما انا العبد الآبق .

تخيل كيف يمكنني ان أقول ذلك لزوجتي .. ضابط في " لواء العبيد" !. أخجل من نفسي .. تمنيت الموت مرارا ولم تأتي .. عندما سألني ابني الصغير الذي سمع من زملائه في المدرسة ان والده في " اللواء الأسمر " ويلقبونه " لواء العبيد " ؟!!.. بكى بدموع من دم .. زادت حرقتي وتضاعف اضطرابي .. ومنذ ذلك الحين ، لم اعد اعرف النوم .. وسئمت من كمد حرقتي .. لهذا قصدتك بالعيادة .. استجدي مهدي اعصاب .. او منوم .. او اي علاج يخفف اضطراب حالتي .

- حاولت قدر الامكان ان اشد من ازره ، وان اقزم معضلته ، واسخر من تلك النظرة القاصرة ، والكتاب او القرار سيء الصيت .. وفي داخلي بركان من القرف .. اكتوي بألمه كما يشعر وأكثر .. وبصمت .. واظنني تمكنت الى حد

كبير في ابعاد شبح الاسى عنه .. شاركني ري الجداول .. ووعدني انه هو الاخر سوف يقوم بالمهمة كلما سمحت له الفرصة .

ساد جو من المؤانسة ابعد الغم والهم .. وفي الاثناء قدمت سيارة نحونا .. وكان العقيد مفتاح اصبيع .. هللنا لقدومه .. وتبادلنا التحايا .. يسألني عن البديل القادم .. ولا بديل قادم فيما اعلم .. وغدا او بعد غداعيد الفطر ، فمن هذا الذي سيأتي يوم العيد الى صحراء السارة ويترك الاحتفاء صحبة اهله وذويه .. لم يأتي لغرض محدد ، انما تمضية للوقت في اخر يوم من رمضان .. تداولنا احاديث شتى .. وفي ثناياها حشرت السؤال الذي يراودني .. هل صحيح ان هناك لواء عسكري يدعى اللواء الاسمر ؟

- لما السؤال .. نعم هذا صحيح يا دكتور .. محن المحيط الذابل .. ولكن لا توقظ مواجعي .. لو ان الامر وقف على اللواء الاسمر .. لهانت .. وماذا تنتظر ممن لا يقيم وزنا للعهود ولا يحترم المواثيق التي وقع عليها ؟

- أي عهود ومواثيق ؟

الحرب .. ليست مع تشاد .. بل هي مع فرنسا .. وفرنسا تريد ان يكون " خط عرض 16 " الحد الفاصل الذي لا تتعداه القوات الليبية .. ووقع الطرفان ليبيا وفرنسا على معاهدة تنص على ذلك .. لكن الأوامر التي تصدر من القيادة

تجري بالمخالفة لما اتفق عليه .. ايهام الفرنسيون اننا منسحبون ، وبعد انتها مدة تواجد المراقبين ، تعود القوات الليبية لتحتل " إنجامينا " من جديد .. كيف يستقيم هذا والفرنسيين يعرفون كل شيء عنا .. يراقبوننا بالأقمار الصناعية التي لا تغادر سماءنا .. وعندما تقول يتعذر تنفيذ الاوامر .. يجيبك اختلوهم ! .. نخاتل من يرانا ولا نراه .. ومن المخاتلة تدشين اللواء الاسود .. وكأن الفرنسيين يتفحصون الوجوه عبر البوابات .

فعلا لنخاتلهم .. تذكرت ما اشيع بعد الغارة الامريكية على طرابلس وبنغازي في سنة 1986م .. بأن جهاز " الموساد الاسرائيلي " يخطط لعمليات انزال على الأرضي الليبية ، ويستهدف المدن ، وفي خطته يستعين باللوحات الارشادية للطرق والشوارع ، مع انها محدودة وفي العاصمة فقط حول الطريق المسمى بالسريع .. او بالأحرى البطيء .. نظمت حملة لطمس الكتابات على اللوحات الارشادية .. بالطلاء القاتم .. يا لها من مخاتلة .. ويا لهم من مخططين دهاة ، ودهاقنة عتاة .

- 39 -

مائدة الافطار في اليوم الثامن والعشرون من رمضان ، زاخرة بما لذ وطاب .. الكبانية وجدوا في تجهيز الاكلات تمضية للوقت وملء للفراغ ، يتفننون في طهي اصناف الاكلات .. على الطريقة البدائية ، مرجل الحطب ، ثلاثة احجار تسند حلة الطبخ اعلاه .. وزوبعة دخان .. تتحدى بكبرياء وتتطلع للسمو .. لا شيء أخر فوق .. حتى هامات الرجال .

التموين متوفر بكثرة ، كل يوم تصل طائرة ضخمة محملة بالخضر والفواكه والتمر والحليب وكل ما تشتهي النفس .. ثمة شيء من التبذير ، نصحت الكبانية بعدم التمادي فيه .. انبرى احدهم محتجا : اي تبذير يا دكتور .. ولتعلم ان كميات الاغذية الوفيرة التي تجلبها طائرة التموين ، يعود نصفها من حيث اتى ، كل ما هناك تمرير فواتير وأرقام ، يصلنا القليل فقط .. وباسمنا يصرف اضعاف وأضعاف ما وصل .. " شفط .. ولهط في بطون الصحاح " .

عقب النقيب عبدالسلام على قصة التموين المبتور او المستقطع ، انه غول الفساد ينهش كل شيء في هذه البلاد ، سرطان ينخر خلايا جسد الدولة ، لكنه استفحل ، واستئصاله بات متعذرا .. انظر الى الاسواق الشعبية .. بغض النظر عن القناعة بجدوى الفكرة من عدمها ، من يقومون عليها يتحكمون بتمرير

السلع ، النادرة منها بالذات ، للأقارب والمعارف .. اذهب الى قسم المرور والرخص ، تمنح رخصة دون اجازة امتحان القيادة .. حاول استخراج جواز سفر ، تحتاج معارف بإدارة الجوازات .. حتى السفر عبر المطارات المزدحمة .. وأين ما ذهبت لن تجد مؤسسة حكومية طاهرة نظيفة .. حتى الحج لبيت الله الحرام يتم بوساطة اعضاء اللجان المشرفة ، وعلى حساب خزينة الدولة يحجون كل عام ، وليتهم بعد كل تلك السفريات يفقهون مناسك الحج .. " وحمد واحميده " .. الخلل بنيوي .. الرشوى باتت " بزنس " استثمار . وتبادل مصالح وعلاقات .. حتى من يتحدثون باسم الفضيلة وكأنهم ملائكة اطهار ، يسوقون لأنفسهم وينسجون شبكة علاقات تضمن لهم تمرير مصالحهم الشخصية .. اظن انه نوعا من ازدواج الشخصية .. او انفصامها .

وبينما وافقه الجميع على الطرح ، انبرى بنينة .. عن اي ازدواجية وانفصام تتحدث ، افندي عبدالسلام ؟ .. انا عن نفسي في احيان اجدني اختار السير على الرصيف " البنكينه " .. اسطو على ما تطال يدي من اموال الدولة ، لا اموال الناس الخاصة .. " راه رزق الحكومة كيف الرميمة منين يواتيك أنتش " .. غمرت الجلسة نوبة ضحك .. بنينه كتاب مفتوح " اللي عنده في الطبق " .

- 40 -

الساعة الواحدة ليلا لا زلنا نتسامر كالعادة .. صدح صوت رصاص " صليات كلاشن" .. نهض الجميع على عجل .. سيطرت حالة من الذهول والترقب .. الحذر والتربص سيد الموقف ، لا معلومات ، سيارات عديدة مسلحة تتحرك في كل الاتجاهات ، تذرع القاعدة وما حولها ، انارتها الكاشفة تقشع جنح الظلام .. مضى نصف ساعة .. نترقب .. عندها رأيت ثلاث سيارات قادمة نحونا وتسير بسرعة فائقة ، هرج ومرج ، نداء بصوت عال .. اصابات .. اصابات .. رصاص .. اثنين مصابين .. هرعت الى العيادة على الفور ، صيحات تتعالى اين الدكتور .. هم افراد المجموعة بإنزال المصابين من السيارات .. وكنت قد سبقتهم لتجهيز العيادة .. اثنان من الجنود .. شباب ينزفون بغزارة .. الدماء خضبت ملابسهم .. يصرخون من شدة الالم .. اصابة احدهم خطيرة ، رصاصة بالصدر .. وجرح بالظهر .. والأخر اصيب بقدمه ، تهشمت عظام الرجل .. تركت بنينة يهتم بوقف نزيف المصاب بالقدم ، وإعطاء حقنة مسكنة للألم ، وتضميد الجرح .. واهتممت بالمصاب الاخر .. عينيه تائهة ، وجهه شاحب .. يتنفس بصعوبة بالغة .. اشرت بإحضار انبوبة الاكسجين الوحيدة .. ووضع قمع التنفس على الانف .. حقنة بالوريد لتخيف الالم .. اتتبع وقع نبضات قلبه ، بدا لي تعرضه لإصابة بالغة في الرئة .. وتراكم للغاز

بالقفص الصدري .. غرزت مسبار بين ضلوعه تحت تأثير المخدر .. نفث الهواء المختزن بالداخل كبالونة هواء مضغوطة وجدت متنفس .. مع الهواء كان الدم يخرج بغزارة .. تحسن نفسه قليلا ، وضل وجهه مصفرا شاحبا .. أتعامل معه .. وبين الفينة والأخرى ، ارقب ما يقوم به بنينه مع المصاب الآخر .. همي ايقاف النزيف .. توقعت ان يخضع لعملية بتر الرجل لاحقا .. كانت حجرة العيادة مزدحمة بمن يودون المساعدة . ومن يدفعه فضول الاستطلاع .

بعد ثلث الساعة قدم الى العيادة المقدم " صالح " .. يرتدي بزة الصاعقة ، هندام وقيافة عسكرية متناسقة .. القى نظره على المصابين ، " لا بأس .. لا باس " .. يتبع خطواتي لإنقاذهم .. يسألني ما اذا كانت الاصابات خطيرة .. المصاب الاول لا يزال ينزف ، فقد الكثير من دمه ، ضغطه ينحو للهبوط اكثر فأكثر .. والآخر رجل مهشمة .. لكنهم افضل حالا من لحظة قدومهم .. قلت له : يا أفندي .. هولاء في حاجة الى تحويل عاجل .. اطلبوا الطائرة الان .. وفورا .. اجابني .. حاضر دكتور .. لم يكمل ما يبدو انه كان يود قوله ، حتى وقف بجانبه ملازم اول .. همس في أذنه بكلمات .. رد عليه .. معقولة ؟!! .

كنت مشغول جدا .. الاصابات خطيرة ، والإمكانيات محدودة .. وأمام تحدي كبير .. لم اهتم بوشوشاتهم .. فجأة تغير المشهد ومزاج المقدم ، اشتاط غضبا ..

وتوجه الى المصاب بالرجل .. كان ملقى على الارض .. لعدم وجود سوى سرير واحد للفحص بالعيادة .. رفسه بحذائه العسكري حتى كاد يكسر عظامه .. وانهال عليه بالشتائم والسباب .. والبصق والوصف بأقذع الصفات .. " خزه عليك .. كلب ... لعنه الله على هالراطسه " .. وأعاد كدمه بالحذاء مرات ومرات .. وبقوة اكثر .. تركت المصاب .. توسلته ان يتوقف .. كان غاضبا جدا .. يصيح بصوت عالي .. اتركني اقتله الان .

توجهت الى المريض محاولا نزع قميصه لأرى اثر كدمات الحذاء .. رأيت المقدم ينحني على المصاب الاخر .. توقعت انه يتنصت نبض تنفسه ، او انه سيهمس له في اذنه .. لكنه من فرط غيظه نهش اذنه بأسنانه .. حتى كاد يقطعها .

يا الهي ما الذي يجري ؟! .. ارتفع صوتي ..وحد الله يا أفندي .. انت هنا في حجرة معالجة .. طلبت منه مغادرة العيادة .. خرج وهو يتمتم ويكيل الشتائم والسباب للمصابين .

الوقت يمر .. والانتظار القاسي .. وعامل الزمن كفيل بإنقاذهم .. عاد المقدم صالح بعد نصف ساعة .. طلبني خارج العيادة .. وابلغني ان الطائرة اقلعت من طرابلس وفي طريقها الى القاعدة ، وسوف تصل بعد ساعتين تقريبا ..

شكرته على ذلك .. ولا زال يتمتم .. هؤلاء لو ماتوا كان افضل .. هل تعرف فعلتهم دكتور ؟

- للاسف لا .

- هؤلاء كان في ضيافتهم بالخيمة مجند من رفاقهم .. دعوه لتناول وجبة الافطار سويا .. لكنهم في لحظة ما هموا بالاعتداء عليه (آها .. محاولة اغتصاب) ، وعندما ادرك نوياهم ، لمح بندقية " كلاشن كوف " مدلاة بعمود الخيمة .. قفز عليها وصوب اليهم .. هربوا خارج الخيمة .. لاحقهم وأصابهم .. يعجبني انه اصابهم حتى بعدما فروا منه .. وفي جنح الظلام .

تمر الدقائق بتثاقل .. وكأنها السعات الطوال .. ننتظر لحظة وصول الطائرة .. مهم ان تكون سببا في إنقاذ حياة إنسان .. مهما كانت دواعي اصابته .. مهمة الطبيب .

الأنباء الواردة تؤكد لحظة هبوط الطائرة على مدرج مطار السارة بعد ساعة .. الاستعدادات لنقلهم الى المطار مكتملة .. لم يخطر ببالي وانا منهمك بالمعالجة انني سأرافقهم ، وفي الحال قدم العقيد مفتاح .. انتحى بي جانبا .. قال لي .. لقد وعدتك الاحتفاء بالعيد وسط العائلة .. وهذا ما كنت انوي القيام به غدا .. الآن الفرصة حانت .. احزم مقتنياتك ورافق المصابين الى بنغازي .. ومن

هناك يمكنك ان تذهب لقضاء العيد مع اسرتك ، وبعد العيد بأسبوع ، اما ان تعود ، او يأتي البديل .. بقى من الزمن نصف ساعة عن هبوط الطائرة .. لحظات فارقة .. نصف ساعة للملمة مقتنياتي وتوديع الاحبة ورفاق جمعتني بهم ألفة طيبة .. وصحبة متميزة .. وأوقات عذبة لا تنسى .. سأترك ورائي كل هؤلاء .. سأغادر الان من دون موعد سابق .. اشفق على مصيرهم الى اين .. اتألم لأجلهم .. انها الحياة تعزلنا عن من نحب حين ينتهي اجل اللقاء .. عانقت من حضر .. وبلغت التحايا لمن لم يسعفني الوقت لوداعهم .. دعوات بنينة ترافقني .. وتنظير عبدالسلام يشدني .. ونظرات العقيد مفتاح اصبيع .. كلماته لحظة الوداع الاخير .. قال لي بالحرف وهو يحضنني مودعا .. " يا دكتور انكان حيين ومن اهل الدنيا ، ان شاء الله وعد تزورني في سرت وكان ربي كتب علينا الموت .. ان شاء الله نتلاقوا على حوض النبي في جنة النعيم " .. كلماته وأنا ادرك حجم الخطر الداهم .. هزت مشاعري .. دمعت عيناي .

- 41 -

على ضوء سيارات تيوتا نقل المصابين الى الطائرة " لانتينوف " الروسية .. ربطت اجسادهم على الحاملات " باريلات " بإحكام ، احترازا لهزات الاقلاع والهبوط .. الطائرة كانت مخصصة لنقل البضائع والجنود ، لا لنقل الجرحى والحالات الخطيرة المستعجلة ، مما صاعب مهمتي ، مقاعد صغيرة مشدودة بالأربطة الى جسم الطائرة ، طاقم الطائرة على درجة عالية من الكفاءة ، معاملتهم الحسنة ساعدتني على اداء مهمتي ، احد القبطان .. اعارني فراش .. قال لي : عندما تستوي الطائرة بالأجواء .. يمكنك ان تضعه الى جانب الحاملة وتقترب اكثر من المصاب ، وسنعمل على ان تكون حركة الطائرة متزنة .. اغلق باب مؤخرة الطائرة .. ارتفع صوت هدير المحركات ، كان مزعجا للغاية يصم الاذان ، اقلعت الطائرة .. وبعد مضي عشر دقائق استوت بالأجواء .. القبطان اشار اليّ بإمكانية الجلوس على الفراش ، ومحاذاة المصاب ، كان نبضة ينخفض ، حاولت استراق النبض عبر السماعة ، لكن هدير المحركات لا يسمح بذلك ، عدلت عن الفكرة وسط صخب الضجيج .. المصاب بالقدم حالته ساكنة والنزيف توقف .. أعطيته جرعة جديدة مسكن للألم .. كنت قلقا على المصاب بالرئة .. نبضه 120 نبضة في الدقيقة .. خشيت تدهور حالته للاسوأ .. ارتفع

مستوى السائل المختلط دما بالأسطوانة التي أعددتها لسحب الدم والهواء من صدره .. بدأت اشعر انه يغيب عن الوعي .. الأسطوانة تتطلب ان يكون مستوى الجسم مرتفع بما لا يقل عن نصف المتر .. ولم يكن ذلك ممكنا .. حالته تسوء أكثر فأكثر ، كنت شبه عاجز عن الفعل .. ما الذي يمكنني فعله .. منحته جرعة سوائل اضافية عبر الوريد .. لكنه في حاجة لتعويض الدم الفاقد .. امتلأت الأسطوانة وغاب عن الوعي .. النبض ضعيف ويتناقص .. يا إلهي انه سيموت ولا زال امامنا ساعة اخرى طيران .. الضرورات تبيح المحظورات .. خمنت انه لابد من فعل اي شيء .. اي شيء افضل من لا شيء .. تراكم الهواء بالصدر اقل خطورة من فقد الدم .. والأسطوانة لن تفيد في اخراج الهواء .. قررت وقفت عملها .. نزعت المواسير وأدخلت من خلالها ماسورة للتغذية .. استخدمت الأسطوانة المملؤة بدمه لتعويض الفاقد .. رفعت الأسطوانة للأعلى وقوفا .. بدأ السائل يسري بجسمه .. كنت خائفا من مضاعفات ما افعل ، فما أقوم به يتجاوز الاعراف التي تعلمتها بكلية الطب والمستشفيات .. بعد مضي نصف ساعة عاد وعيه .. فتح عينيه ببطء .. لا يزال على قيد الحياة .

وصلنا مدينة بنغازي فجرا .. سيارة الإسعاف تنتظرنا بالمطار .. اثنين من المسعفين على متنها .. استلموا المهمة .. شعرت براحة كبيرة ، وكأن جبلا رفع عن كاهلي .. توجهنا الى مستشفى الجلاء .. وجدت الزملاء من قسم الجراحة

هناك .. استلموا الحالة .. ومباشرة الى قسم العمليات .. اسعف المصاب بطريقة سليمة . اما الاخر ، فقد تقرر بتر رجله ، الإصابة مزقت الأعصاب والعظام وحدث تهتك بالعضلات والشرايين والأوردة .. رتقها غير مجدي .

كنت متعبا جداً ، وجدت في غرفة الأطباء المكان المناسب لقسط من الراحة .. وانتظار خروج المصابين من غرفة العمليات .. اخذتني نومة .. بعد ساعتين أيقظني احد الزملاء ، وابلغني ان المصابين بخير .. ثم إيقاف نزيف شرايين الرئة ورتقها .

من امام مستشفى الجلاء أوقفت اول تاكسي .. اوصلني الى مستشفى الهواري .. مررنا عبر احياء بنغازي .. " سيدي حسين " .. " البركة " .. " الكيش " .. حديث صاحب التاكسي يشكو وجع الحال .. " عندي عشر اصغار .. والحكاية يا دوب " .. عشرة اطفال وبؤس الحال .. في حي " الزيتون" .. لمحت خيمة كبيرة ، قلت بنغازي افراح في رمضان .. ما شاء الله .. التفت اليّ بدهشة .. " أي أفراح يا راه .. قالك أفراح ... هاذيم خيام عزاء تشاد " .. خيم عزاء ضحايا حرب تشاد .. من فادا الى وادي الدوم .. تتموضع في ازقة وشوارع بنغازي .

غرفتي بمستشفى الهواري كما تركتها .. جمعت مقتنياتي .. حزمت امتعتي .. امتطيت سيارتي " داتسون 140 " .. نحو الجنوب .. الى قريتي تمنهنت .

- 42 -

خف تأثير " الأدرينالين" الذي سيطر طوال حالة الترقب بقاعدة السارة .. الى رحلة انقاذ المصابين .. ركبت سيارتي .. في رحلة شوق لرؤية الاهل والأسرة .. اظنهم فقدوا الامل في مشاركتي لهم بهجة العيد .. لقد طال الغياب .. تختلط المشاعر .. ويتقلب المزاج بين الاحباط واليأس .. النشوة والفرح .. وسعادة غامرة بالعودة ، وأمل لقاء الاحبة ورفاق زمن الفتوة والصبا .. انهيت مهمتي دون ان يموت احد بين يدي .. حتى من ظننته فقد وعيه .. وخف نبضه .. ولم تبقى سوى لحظات ليغادرنا .. كتب له عمر جديد .

اتمتم بعبارات دعاء السفر .. وأسابق الزمن .. أتلوا ما تيسر من ايات قرآنية ، مما أحفظ عن ظهر قلب .. امامي مسافة 1200 كم تفصلني عن قريتي النائية بالجنوب .. انصت لتراتيل قرآنية .. شريط مسجل لسورة يوسف عليه السلام .. يصدح مسجل السيارة .. وقد سرح الخيال في تأمل تلك العبر .. عبر الفقد والصبر ، البلاء والابتلاء ، والعودة للأهل .. وما ينتظر الانسان .. وما يحمل

المستقبل المجهول .. مواعظ اخرى في سورة الكهف .. وتدخل العناية الالهية عندما تعصف الشدائد والأزمات .

السيارة تمخر اديم الارض .. وأنا أسبح عبر بساط الريح .. كنت احب الاستماع الى عمل غنائي لاقى شهرة وانتشار واسعا اواخر السبعينات من القرن .. " رحلة نغم " .. كلمات الشاعر فضل المبروك .. غناء والحان الفنان محمد حسن .. يشاركه ثلة من الفنانين الليبيين .. رحلة غنائية تجوب قرى ومدن الوطن .. الساحل والصحراء .. الوديان والسهوب .. الجبال والهضاب .. تنتشي من المأثور الشعبي حينا .. ومن قريحة الشاعر المبدع حينا اخر .

ملحمة تفيض بكل ما هو جميل في ليبيا .. اطلقت لها العنان .. يصدح المسجل الستيريو .. يبعث الانس في رحلة المسافات الطويلة وحيدا :

هايم انا بحب بلادي

وحياة الدم اللي رواك بيه اجدادي

ما يوم تهون يا غالي يا تراب بلادي

***

يا حلو يا لابس الحلو يا صغير يا عجباني

يا كابر النار في العلو دخان نارك عماني

***

فوق الجبل لاخضر البيضاء تطل

تقول مرحبا للضيف وين يهل

***

سبحان اللي هنتك هوانتيني

نسيتك بعد ولعات ونسيتني

كيف قدرتي .. وكيف يا مرادي عل الفراق صبرتي

زمان في سبيل ارضاي ياما درتي .. حتى ان قسا قلبي عليا تليني

كان الجو حارا جدا .. لكن لم اتضايق بوطأة الحر .. مررت بقرى وواحات .. المقرون .. قمينس .. اجدابيا .. البريقة .. راس لانوف .. بشر .. بن جواد .. وذاك المقهى على يمين الطريق الذي تعودت الاستراحة عنده .. لكنه الصيام .. واصلت الرحلة دون توقف .. واحة هراوة .. عند مدينة سرت .. تذكرت العقيد مفتاح اصبيع .. عاهدت نفسي ان أعود يوما ما الى زيارته وأهله .. توقفت عند احدى محطات الاستراحة على ناصية الطريق .. حان وقت المغرب .. وإفطار

اليوم الاخير من رمضان .. ثم واصلت المسير عبر طريق الرواغة .. لا يزال حديث الانشاء .. نسمة رطبه ما بعد الغروب .. انتشي ولحن رحلة نغم .. بن وليد تنادي .. اللحن فيها شادي.

***

يبان شوق القلب في نبضاته

ويقوللي ارجع على مصراته

***

يا خمس يا زهرة حنان وحب

يا ساكنة في النبض جوه القلب

***

طرابلس عروس البحر

يام السرايا و الشط والهاني

شايل حنيني ليك

طرابلس احلى مدينة .. مفتونين بحبك ديمه

***

هوينه لهليل هوينه الهلال .. هوينه لغزال يرتع ع الرمال

صبراته .. ع الشط تبان .. ازوارة .. هايم في عيون زوارية .. غريان .. مدن الجبل .

اشرك والبس تحت البخنوق المحزم ضاوي جوفه

من صغره قلبي محروق معذبني بكلوفه

شارفت على وصول منطقة الجفرة .. واحات .. ودان ، هون ، سوكنة ، زلة ، الفقها .

سكب سال دمع الميامي حدايف

و عقلي مرايف

ونا النوم ما نرقده م الزنايف

الساعة الثانية بعد منتصف الليل وصلت قريتي " تمنهنت" .. رايتها كما أراها من قبل .. احن اليها .. هنا فتحت عيني على الكون والحياة .. ضغطت زر جرس منزل العائلة .. صوت امي ردت على الفور .. من ؟ كأنها تنتظر عودتي .. وتترقب وصولي .

- انا سالم .. سالم ياما .. افتحي .

- ثواني واذا بها خلف الباب .. انت سالم ؟!.

- نعم .. نعم .. انا سالم .

فتحت الباب .. عانقتني بلهفة .. اختلطت دموع الفرح والزغاريد .. " سالم .. سالم جا " .. كم هو قلب الام منجم حنان .. تحضنني وتعيد .. تريد ان تتأكد اكثر انني حقا بجوارها .. وأنها تعيش الواقع وليست في حلم .. لهفتها لرؤيتي ذكرتني بكل الرفاق الذين تركتهم في قاعدة السارة .. امهاتهم وزوجاتهم وأبنائهم .. ينتظرون قدومهم .. وقد طال الغياب .. يا الله من بهم .. وكيف هم الآن .

هرع الاخوة والأخوات ، فزعوا من مضاجعهم ، الفرحة تكسو الوجوه ، اجتمع شمل الاسرة .. عانقت والدي .. دموع تسربت غطت جفون عينيه .. وهو يقول " الان .. اكتمل العيد .. سبحان الله .. قطعنا الامل في مجيئك .. لكن امك لم تنم .. تقول وتعيد .. سالم بيجي " !! .. قلب الام يتحسس قرب وبعد وليدها .

قليل من النوم .. وحان موعد صلاة العيد بالمسجد .. لبسنا ملابس العيد .. واتجهنا للمسجد الجامع سيرا على الاقدام .. اصوات المصلين تهلل بالحمد

والتكبير .. سبحان الله .. والحمد لله .. لا اله الا الله .. الله اكبر .. الله اكبر .. الله اكبر ولله الحمد .

ما ان انتهت الخطبة ، تبادل الناس المعايدة .. والأمنيات بعودة الشهر الكريم والجميع في احسن حال .. عناق .. ترحيب .. دموع .. تبادل السماح .. الكبار والصغار .. فرحة العيد وبهجة اللقاء .. وذكرى من غيبته الاقدار .. ومواساة مريض ومصاب .. اعايد وأواسي " علي " الذي بترت ذراعه في تشاد .. " الهادي" الذي نجا من مقتلة وادي الدوم .. لقد اخذ من المدرسة قسرا الى المعركة ، دون علم والديه .. رأيت في وجوههم صور رفاقي الذي تركتهم في السارة .

كنت سعيد جداً بقضاء العيد مع أهلي ، وهم فرحين بوجودي بينهم ، ولكني لم أنسى كل اولائك الذين تركتهم ورائي ، في صحراء السارة .. يقضون يومهم بعيدين عن أهلهم وأحبتهم .. ولا ابالغ ان قلت انني أعدت قصة السارة عشرات المرات .. الجميع يود ان يعرف كيف هي احوال الليبيين في الجبهات .. وأخبار حرب تشاد حديث الساعة .. الحاج عبدالسلام لم يكن يخفي امتعاضه .. حرب تشاد جرفت الزاد وأهلكت البلاد والعباد .. القوة تلغي ولا تقنع .

قضيت أياما جميلة معية الأهل .. وفي كل ليلة أتذكر جلسات المسامرة والرفاق .. ووعدي للعقيد مفتاح بالعودة حال عدم وجود البديل المناوب ..

كثيرون أشاروا عليّ بالبقاء وعدم الرجوع .. لكن ذلك ما لم يرد بذهني .. لقد وعدت العقيد مفتاح بالعودة بعد انتهاء اسبوع الاجازة ان لم يذهب البديل ، ووعد الحر دين عليه .. ومن جديد استأنفت رحلتي الى بنغازي .

- 43 -

ودّعت أهلي ، لقد حان وقت الرحيل .. دعوات الوالدة بالحفظ والسلامة تصحبني ، وما ان دارت عجلات السيارة ، نثرت كوب الماء خلفي .. عادة متوارثة بين اهلنا .. فآل خير واعتقاد بعودة المسافر سالما " بيضاء ان شاء الله " .

لم أفصح لأسرتي بالمخاوف التي تحاصرني وأنا اهم بالعودة الى قاعدة السارة .. قلب الام بالذات .. لا يحتمل رؤية الحيرة تكسو محيا ابنها .. كان الحديث في العموم عن نكبة وادي الدوم والهزيمة الساحقة التي تكبدها الجيش الليبي هناك .. وعن الطلبة الذين أجبروا وزج بهم في وغى المعارك دون علم او موافقة اهلهم ، ودون معرفة لهم بفنون الحرب والقتال .. لم ابلغهم عن مقتل الرائد محمود الزروق الرشيد .. ولا اقربائه الذين قدموا لمعايدتنا .. ولا عن الاخطار المتوقعة والمحدقة بقاعدة السارة .

الأيام التي قضيتها مع الاسرة .. وحواديت العيد .. عرفتني اكثر بما يدور بالقاطع الغربي من الجبهات .. محور اوزو .. الاحداث متسارعة .. والدفع بالمزيد من الجنود حطبا لنار مشتعلة .

رحلة العودة الى بنغازي بدت أطول بكثير مما كانت عليه .. مملة ومتعبة .. والمسافات الطويلة بدت وكأنها تتمدد اكثر .. قطعتها على مراحل .. وقفة للفطور " فتات ساخن" واحتساء فنجان شاي بمنطقة " القاف " .. وقفة استراحة وتعبئة الوقود في " هون" ، وقفة لتناول وجبة الغذاء في مقهى " بن جواد" ، ومنها الى بنغازي .. مستشفى الهواري .. مقر السكنى والعمل .

صباح اليوم التالي ذهبت الى السرية الطبية للاستفسار عن البديل .. كانت المفاجأة .. البديل سافر قبل يوم من وصولي الى بنغازي .!

عدت الى عملي .. طبيب بقسم الجراحة .. التحقت بمستشفى " الجلاء " الذي كان مختص في جراحة الطوارئ .. يستقبل الحالات المحالة من كافة مناطق الشرق الليبي ومن الغرب حتى مدينة " سرت " بالإضافة الى مرضى الجنوب .

فريق الأطباء في المستشفى اسرة واحدة .. يعملون بتفاني وإخلاص ، بعضهم أصبح المستشفى بيته .. هذا الشعور العائلي والأخوي يجمع ليس فقط

بين الأطباء ، بل يشمل الممرضين والإداريين .. لا انسى طبيخ المجبري فني التخدير .. عادة موعده الواحدة ليلا .

يعتريني هاجس القلق على الرفاق في قاعدة السارة .. يلاحقني في كل الاوقات .. وكلما جرى الحديث عن حرب تشاد التي تلوكها الالسن بين الحين والاخر .. صارت خبر الساعة مع انتشار خيم العزاء والمأتم بازقة بنغازي وحواريها .. ضحايا الحرب .. الاسرى .. وتلقف الاخبار المستجدة يوما بيوم ، الاجواء مشحونة ، والوجوه كئيبة ، لقد ضاق الافق .. ضنك المعيشة ، ومآسي الحرب صنوان .

بنغازي مدينة جميلة .. أهلها طيبون ، تنعت " رباية الديح " .. التي تؤوي الايتام .. يهللون لقدوم الغريب عنهم ، شأن طباع اهل الشرق الليبي بمجمله ، نسيج اجتماعي مترابط .. له نواميسه وأعرافه .

عبر التاريخ ، بنغازي ثائرة .. لا تركن ولا تستكين .. الجفوة بينها ومن يسوس البلاد ظاهرة .. تظاهرت ضد المحسوبية والوساطة إبان العهد الملكي ، دفعت ابنائها الطلاب فداء .. قتلوا حينها برصاص البوليس ، وعلى نهجهم اخرون في ابريل 1976م ، الى ثمانينات القرن .

في مستشفى الجلاء نستقبل يوميا مصابين في المعارك التي تدور بالجنوب .. احد الأقسام الجراحية خصص لجرحى حرب تشاد .. الوثيرة تتصاعد ، والتخبط يزداد شيئا فشيئا ، وإعداد القتلى والمصابين يرتفع باستمرار . كنت ورفاقي الاطباء الجدد في قسم الجراحة " على ، ونافع " في دوام شبه مستمر .. ما ان نسمع بوصول طائرة تحمل مصابين نسبقهم الى المستشفى ، نساعد الفريق المناوب ، نستثمر الفرصة للتدريب وتعلم مهارات جديدة .. سيارة " على " الفولفو الخضراء .. دائما في حالة ترقب مستمر .

في تطور مفاجئ للأحداث المتسارعة خبر اجتياح القوات التشادية قرية اوزو .. يوليو 1987 م .. كان الخبر بمثابة " القشة التي قصمت ظهر البعير " .. بعد اجتياح لكامل التراب التشادي ، حدث النقيض هذه المرة ، كانت رغم الاسى صفعة على وجه النظام .

اشتاط النظام غضبا وفزعا .. جمع كل ما بقى لديه من قوى وترسانة لاستعادة " اوزو" .. وفي أسرع وقت ممكن .. الاحتفال بذكرى الانقلاب كانت على الابواب .. جن جنون النظام وهو يدفع بالقوات لاستعادة القرية .. وبإصرار شديد ، فلم يبقى لديه ما يحفظ ماء الوجه .

- 44 -

القسم المخصص في مستشفى " الجلاء " مليء بالجرحى والمصابين في هذه الحرب .. وعناصر الاستخبارات تحاول التكتم على حقيقية ما جرى في المحور الغربي .. إصابات خطيرة .. بتر ارجل واذرع .. تهتك الدماغ .. إعاقات ذهنية دائمة .. من فقدوا بصرهم .. من احترق جلده .. من هشم تفجير لغم اطرافه او شوهه وجهه .

منع الدخول الى ذلك القسم على غير الأطباء .. عيون رجال الاستخبارات تراقب في كل زاوية .. وفي كل يوم ترد حالات اخرى ، وإصابات اعنف .. كنت اقول مع كل طائرة تصل ، متى دور السارة .. وذلك ما حدث .. كانت الطامة الكبرى .. لقد اجتاحت القوات التشادية قاعدة السارة .. واحتلتها .

انتشر الخبر كالنار في الهشيم ، وقع الخبر مني كخنجر غرز بالقلب .. أتألم بحرقة ، اندب حظ رفاقي .. وأتحسر على المصير الذي داهمهم ، ولم يتركوا الوسيلة للتنبيه عن الاخطار المحدقة بهم .. ولا احد التفت لصرخاتهم .. اتسأل .. وأتلقف الاخبار .. أناوب بالمستشفى في تواصل مستمر .. رفاقي في السارة .. كل الذين تركتهم هناك بالأمس .. اتسقط أخبارهم .. هائما على وجهي .. مخبول فقد عقله تماما .. اكاد اصرخ بأعلى صوتي .. اريد ان تسمع صرختي

بكل ارجاء المعمورة .. هجر النوم الجفون .. اتابع الفضائية الليبية .. والإذاعة المسموعة .. اكاذيب .. تمويه .. تضليل .. إذاعة لندن تنقل صورة كئيبة .. مقتل المئات وأسر المئات .. والغنائم التي لا يخفى عليّ حصرها ، يتفطر قلبي حزنا داميا ، سعات رهيبة ، وأيام حزينة مررت بها لا انسى قسوة مرارتها .. اطوف المستشفى عسى ان اجد احدهم .. لا اجدهم ، ولا تصلني اخبارهم .. اتحرق لوعة ، الحزن كاد يقتلني .. يوم 5 سبتمبر 1987 م .. يوما اسود في تاريخ ليبيا .. وبالنسبة لي ، صدمة خلفت ثقب دامي في صميم القلب والوجدان ، انكشف الكذب والنفاق ، سقط قناع القيادة الزائفة .. القوات التشادية في قاعدة السارة .. في عمق الاراضي الليبية .. انقلبت كفة الحرب .. الفصل الأخير من المأساة .. لا اجد ما يشفي غليل الصدر والكيان . وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر .

اطوف بالقسم المخصص لجرحى تشاد ، ساعة بعد اخرى .. اتفحص كل وجه جديد حضر في غيابي .. لم اطق صبرا ، ولا الانتظار .. فجأة وقعت عيني على " الفضيل" يرقد على سرير وقد بترت رجله ... ما ان شاهدني حتى نادي بأعلى صوته .. دكتور سالم .. هرعت اليه ، عانقته ودمعتي تسبقني .. اوآآآاه .. هذا اول الرفاق وقد بات معاقا ، غير قادر على الاعتماد على نفسه بنفسه ..

بكيت .. وبكينا .. وتقاسمنا تجرع الحزن .. لحاله ، ولحال رفاق لا اعلم عنهم ، ولحال وطن تركت قيادته ابنائه لقمة سائغة لأنياب المعتدين .

حمدت له سلامة الوصول والنجاة .. لم يتوقف عن البكاء ، اشد من ازره .. يجيبني .. " فضيل ماعاد فضيل" .. بات " فضيل لقطع " ؟!. فضيل مبثور الاطراف .

كلماته اضافت حزنا الى حزني ، تراكم الاسى ، كم هي مؤلمة .. فضيل ما عاد فضيل .. ما هذا الجنون والعبث ، شباب يافع لقي حتفه بالآلاف ، ومثلهم اعاقات مستديمة ، وشياطين الإنس ، دهاقنة الحرب ، في غيهم يعمهون .

" قطيعة .. فاجعة يا دكتور .. جماعتي في السرية قتلوا بمجملهم ، كلهم ماتوا ، قتلوهم التشادية .. لكن الله لا تسامح الذي كان السبب " .. يكررها بصوت عالي ليسمع كل من في العنبر .. " الله لا تسامح اللي كان السبب !! ".

يا لوقري الثقيل وكربتي المضنية .. ها هو ايضا رئيس عرفاء كتيبة المخابرة احمد ، وصل للتو بالغرفة الموازية ، تحيط به معدات الاسعاف ، واسطوانة الأكسجين .. جروح في البطن والصدر ، وجهه المنتفخ حجب ملامحه .. آه .. ثم آه .. الحمد لله على سلامتك ، كيف انت الآن احمد ؟

بصوت متهدج ، ولسان متبرم .. الحمد لله يا دكتور .. نجوت من عين الموت ، من عين الموت نجوت يا دكتور !.

اواسيه بكلمات العزاء في مصابنا الجلل ، اربت على كتفه ، اذكره بالقضاء والقدر ، اهرف بما لا اعي من وقع الاسى .. تطرق اذني نبرة صوت اخر .. من الجانب الاخر في الغرفة .. يناديني .. دكتور سالم .. التفتت اليه .. انه " سلطان" .. اهرع اليه ، الحمد لله على سلامتك ، كيف حالك الآن سلطان ؟ .. لا بأس عليك .. اوآاه .. وقفت عند سريره ، تفحصت الاصابة .. كسور بالحوض .. رصاصة هشمت عظام الحوض .. أنبوب البول يتدلى .. يتوجع ويسألني .. يا دكتور .. انا لا احس بأطراف جسدي السفلى .. اقتربت منه أكثر .. نزعت الغطاء عن ساقيه وفخذيه .. اتحسس اطرافه .. اسأله : هل تشعر بحركة يدي ؟ أومأ بيده .. انه لا يشعر بتحسسي لأطراف جسده السفلى .. يا الهي !.. طلبت منه محاولة تحريك رجله .. لا تستجيب .. يجيبني .. لا قدرة لي على الحركة دكتور .. هل انا مشلول ؟!!. اطمئنه .. لا .. لا .. انت بخير ، وسأستدعي زملائي اختصاصي الاعصاب ، لا تقلق .. خرجت الى الممر .. اجفف انهار دموعي .. لا اريد ان اضيف الى مصابه .. لقد بات سلطان قعيد .. يا الهي .. ما هذا الالم الجارف .. نادى باسمي مرة اخرى .. عدت اليه .. قال لي : نسيت ان اعزيك يا دكتور!!.. النقيب عبدالسلام .. رحمه الله .. ما عدت أطيق ..

عبدالسلام انيس وحدتي ، ورفيق السمر ، فقدت السيطرة على ذاتي ، بكيت بصوت مسموع .. انهمرت دموعي انهار .. رحمة الله عليك يا " عبدالسلام" .. شعلة من النور أطفئت .. خيرة من عرفت .. ومن حاورت .. في مقتبل العمر .. ما كان لمثلك ان يموت هكذا !! .. اوآه .. ما اقسى فقدك .

سألته .. كيف مات ؟

- كان آخر من بقى .. ينادي على الجنود ، يدعوهم للخروج بعدما اجتاحت القوات القاعدة ، دخلوا وما كنا مستعدين لهم .. خرجوا المجموعة الذين برفقته جميعهم ، لكنه اصيب برصاصة في القلب .. كم انا حزين لفقدك يا رفيقي العزيز .. بعد كل هذه السنين .. وأكثر من ربع قرن مضى على المأساة .. يوم فراقك .. سيبقى جرح غائر في الذاكرة .

اصابني انهيار نفسي .. لم اعد اقوى على رؤية رفاقي يتألمون ، ولا تذكر اخرون غادروا ولن اراهم مرة اخرى .. كم تسامرنا .. تناجينا .. سردنا هموم تجمعنا .. ووطن كليم يصرخ ولا جدوى من الصراخ .. غادر عبدالسلام .. وانضم الى قافلة الراحلين .. خرجت من العنبر على غير هدى ، استلقيت صريع في حجرة الاطباء ، اعزي نفسي فقده ، وفقدهم ، ولا اجد ما يخفف حزني ..

تجمدت الدموع في المآقي .. اسرح بعيدا .. أتخيل حاله لحظة الاجتياح على غرة .. وحال من كانوا معه .. اللحظات الاخيرة .. النفس الاخير .. ابكي بحرقة .

في المساء عدت الى المستشفى ، لاحظت ازدحام كبير عند باب المستشفى ، الناس تتقاطر من كل ارجاء المدينة وما حولها ، يستطلعون اخبار اقاربهم وابناهم في قاعدة السارة .. دخلت .. وفي الممر حيث العناية المركزة ، وقبل ان اصل الى غرفة الأطباء ، سمعت صوت يناديني .. دكتور سالم .. دكتور سالم .. التفت اليه .. انه " مصطفى".. ذراعه مضمد بالجبس ، كسر في الذراع .. الحمد الله على السلامة .. كيف انت الآن ؟

- الحمد لله .. نجوت بأعجوبة .. لكن الجماعة يا دكتور .. " اكملوا " .. قتلوا جميعا .. تبادلنا العزاء وما عاد في العين دموع .

مرت الأيام ثقيلة وكئيبة .. علمت من الجنود المصابين ان القوات التشادية الصديقة غدرت بهم ، وتحالف مع قوات " حبري" ، تسللت من " اوجنقا " الى الاراضي الليبية ، وبخدعة ماكرة دخلوا قاعدة " السارة " من الاتجاه المعاكس ناحية مدينة " الكفرة " .. دخلوا القاعدة بسرعة مباغتة ، تشتت القوات الليبية وفقدت السيطرة .. هرب من هرب ، وبقى الآخرين يواجهون مصيرهم المحتوم .

يوما بعد يوم ، أصبحت أدرك مصير عدد كبير من رفاقي في " السارة" .. العشرات قتلوا .. والمئات اسروا ..!!

مضت ثلاثة أسابيع على الكارثة ، اخبار الفقد لا زالت تأتي ، وأنا لا اغيب عن المستشفى .. وقعت عيني على الرائد " حسين " .. اوآآه .. أفندي .. كيف حالك ؟ .. الحمد لله على سلامتك .

- الحمد لله .. سبحان الله .. ما ظننت ان أنجو من تلك الفاجعة .. غدر بنا يا دكتور ! .

حكى ليّ القصة من جديد .. يومين هو الزمن الذي بقت فيه القوات التشادية في " السارة" ، لكنهم دمروا كل شيء ، قتلوا المئات ، وأسروا المئات .. سألته : ما معلوماتك عن العقيد " مفتاح اصبيع" ؟

صمت لبرهة .. وهو ينظر اليّ .. الأفندي " مفتاح" يعطيك عمره .. مات في " السارة" !!!!

انهمرت دموعي غزيرة ، وانتابني نحيب طويل وعبرة خانقة .. اظلمت دنياي .. ولبس الكون تاج الاسى والحزن .. عانقني .. تبادلنا العزاء .. وحد الله يا دكتور .. وحد الله يا دكتور .. عادت صورته امام عيناي لحظة الوداع الاخير .. جرس كلماته يطرق طبلة اذني من جديد .. " انكان حيين ومن اهل الدنيا ، ان

شاء الله وعد تزورني في سرت وكان ربي كتب علينا الموت ، ان شاء الله نتلاقوا على حوض النبي في جنة النعيم " .. ما ظننت انها الكلمات الاخيرة بيننا .. ولحظات الوداع الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا .. ولعل يطيب اللقاء بالآخرة .. رحمه الله وكل الرفاق الذين التهمتهم الحرب الغاشمة الظالمة .

عرفت منه فيما بعد .. كيف كانت نهاية العقيد مفتاح .. قال لي .. لقد رفض الهروب رفضا قاطعا .. أرسلت له سيارة لتنقذه ، ولكنه رفض ان يهرب ويترك خلفه جنوده وضباطه . رحمة الله عليك يا عقيد " مفتاح أصبيع" .. وعدت وأوفيت بالوعد .

مضيتم ايها الابطال عنا .. فذقنا بعدكم مر الفراق

- 45 -

لا اخبار عن " بنينه " .. يوما بعد يوم يتضاءل امل بقائه على قيد الحياة .. كل من تحدثت معهم لم اجد لديهم اجابة ، اسماء من قتلوا او اسروا غير معروفة .. ولا توجد جهة يمكن مراجعتها لاستطلاع معلومة .. الحيرة تلاحق اسر الكثيرين .. يريدون معرفة مصير ابنائهم المتواجدين بالقاعدة لحظة

الاجتياح .. افكر في بنينة ولا يفارقني طيفه ، اتلهف لسماع خبر عنه .. اين هو الآن ؟ .. هل لا يزال على قيد الحياة ؟ هل رحل مع الراحلين ؟ الامل ان يكون اسير .. قلبي معه .. بحت حنجرتي بالسؤال والتقصي عنه ، كل المصابين بالمستشفى ، والناجين من المجزرة .. لا علم لهم بما انتهى اليه .. تحدثني نفسي انه لا يزال على قيد الحياة ، شيء ما بداخلي لا اعرف كنهه ولا مصدره .. يقول ليّ انه سيعود يوما ما .. ربما الوهم المتعلق ببصيص الامل .

انقضى عام الحزن الجارف 1987 م .. انتهت حرب تشاد .. بخروج القوات الليبية من جميع الاراضي التشادية .. تمت استعادة قرية اوزو .. وقاعدة " السارة " التي اخلتها القوات التشادية في اليوم الثالث من الاجتياح .. دخلت الدبلوماسية لتصفية تركة السنين العجاف .. روحي مخنوقة بالرمل ، تباعد الامل في العثور على اثر بنينه ، وبقيت ذكراه لا تغيب .. الحزن صحراء قاحلة .

ذات يوم .. وبينما كنت منهمك في معالجة مصاب بعيادة الجراحة .. صوت طرق خفيف على الباب .. لم اهتم ، لقد تعودنا فضاضة بعض المترددين ، وحتى دخولهم على غير هدى .. ودون اعارة اي توقير للمريض الذي تحت المعالجة .. اعاد الكرة لمرات .. الطرق لم يتوقف .. ضاق صدري .. سألته : من ؟ بصوت نزق .

- انا 12455.

- ماذا ؟!! .. تركت المريض والممرضة وما بيدي ، هرعت الى الباب ، توقعوا ان الكيل فاض ، واخذ الغضب مني .. فتحت الباب .. اوآآ ه .. بنينه .. هل انا في حلم .. ام انه واقع !! .. تعانقنا وظللنا برهة من الزمن .. لا اصدق ما ارى .. بنينة الذي يشغل بالي فراقه لزمن طويل .. ها هو امام عيناي .. مات وعاد الى الحياة من جديد .. نسيت كل ما يدور حولي بالمحيط ، المريض نفسه شعر بلهفة اللقاء .. عذرني .. تحدث مع الممرضة وخرج .. كان لقاء صادما ، ولحظات بعمر كل العصور .. انتبهت .. ناديت على المريض .. معذور دكتور ، سأعود وقت اخر .

اعتذرت للممرضة والحضور ، انهيت دوامي بالعيادة ، وخرجنا معا .. من اين نبدأ الحديث .. ومتى ننتهي ؟ .. اين انت .. وكيف قضيت كل هذه الفترة من الغياب ؟ .. كنت متلهف لمعرفة الكثير .. احكي لي كل شيء .

- " والله يا دكتور .. غير الأيام ما أكملن "! .. وقعت بين ايدي التشاديين .. اخذوني اسير .. حملونا في سيارة مرسيدس 32 ، اشبه بقطيع اغنام ، قطعت الامل في العودة ، والحياة ايضا .. متعلق بين اليأس والرجاء .. لكن " اكوكو قاجا " .. كان السبب بعد الله ؟!!. لم ينسى يوم ان اتى يعاني لدغة العقرب ،

والسم يكاد يقتله ، واهتمامي بمعالجته .. قال لي : انت سنوصلك الى الكفرة .. اخبرني ما جرى بالسارة في ذلك اليوم العصيب ، اكد لي كل ما سمعته من الرفاق المصابين ، وفي كل لحظة يكرر قولته : " التريس راحوا يا دكتور .. مفتاح و عبدالسلام .. وغيرهم وغيرهم .. ما قعد غير الرقيق " !!.. قصة طويلة .. من الصعب ذرع مراحل الرحلة المؤلمة وتحديد التفاصيل .. اليوم يوم سلام .. كيف حالك؟!.

توالت الأيام ونحن نلتقي في بنغازي .. وذات يوم .. جاء ليبلغني الدعوة لحضور فرح زواجه الخميس القادم .. انت وجماعتك ، كلكم معزومين على الفرح .. العبارة التي قالها ذات يوم ولا يملك سوى الاماني ، ها هي تتحقق الامنية .

يوم الخميس .. وعلى طريقي لحضور الفرح ، مررنا بسوق الاغنام ، طلبت من " الزول" البائع ان يختار أحسن خروف عنده ، وان يتولى جلم الصوف ، واشترطت عليه ان يترك فروه بالظهر " قشوطه " . وضعنا الخروف في السيارة 140 .. وانطلقنا الى فرح " بنينه".

وصلنا الى مكان الفرح .. لم يكن بنينه موجود ، طلبت من احد أقربائه ربط الخروف قريب منا بحيث يمكنه ان يراه حين يعود ؟!!.. واندمجنا في اجواء

المرح .. الشعر الشعبي .. الكشك .. المجروده .. قدم بنينه .. وما ان نزل من السيارة ورأى الخروف .. حتى صاح بأعلى صوته .. وين الدكتور ؟!!. وبدأ يرقص فرحا على ترانيم العبارة ذاتها " بيعك تفريط يام قشاشيط ".

أفراح البادية .. شأن عام يشترك في احيائه الجميع ، الأهل والأحباب .. كانت ليلة فرح سررنا بها ، وبتحقق امنية رفيق عزيز بعد طول انتظار ، وفي نهاية الحفل .. باركنا له اللحظة .. وكل الاماني بحياة زوجية سعيدة .. وطاب اللقاء .. ووجب الوداع على امل اللقاء .. بنينة .. مريم تنتظرك هي الاخرى .. طلب مني ان اتبعه الى خلف خيمة العرس ، أشار لشقيقه الاصغر .. هات جاي ؟!! .. البندقية 12455 .. وضع المخزن الاول .. ووقف الوقفة العسكرية ، ادى التحية .. وقال : هذه تحية لأرواح كل رفاقنا الابرار الذين فقدناهم .. وارواح كل الليبيين الذين التهمتهم حرب تشاد .. وبدأ بإطلاق الرصاص في الهواء الطلق ، حتى فرغ المخزن .. ثم وضع المخزن الثاني ، ووقف بذات الهيئة العسكرية . ادى التحية .. وقال : وهذي يا دكتور على روح العقيد مفتاح والرائد محمود والنقيب عبدالسلام ، واطلق الرصاص تباعا دفعة واحدة ، حتى فرغ المخزن .. زغاريد النساء تعالت على وقع البارود .. ثم وضع المخزن الثالث ، ادى التحية .. وصار يرمي اطلاقة تلو الاخرى مفرد .. وقال : هذي : للرفق والرفيق .!!!

بقي في جعبته مخزنيين .. سألته : وهاذين يا " بنينه"؟!!

- هاذين يا دكتور " سع يجي وقتهن لقدام ؟!!.

ودعته بسرور .. بنينة عز الرفقة والرفاق .

خاتمة

مضى ربع قرن ونيف .. وها انا اعود لنبش ذاكرة تعتصر حزنا لفقد الرفاق .. استحضر ارواحهم .. احمّل الحبر رسائل نعي تردد كلماتهم .. تحصي اهاتهم وعبراتهم .. يكبر في داخلي الغثيان والنفور .. العاصفة جرفت الاحلام والآمال .. الزمن يجري ونحن من يتحرك فيه بتعثر .. اذا ما اصخت السمع ، اسمع صرير ، خرخرة مرعبة ، ينبوع ذكريات عكر .. مضمخا كل ثنية من ثيابي .. تغلب الماضي على المستقبل .. اتسأل .. كيف تصحح الاخطاء وقد حولها الماضي الى حجارة ؟

تشاد الجارة .. تقاسي الآم الفقر والبؤس .. ماذا لو ان تكلفة تلك الترسانة الروسية الخردة التي طمرت بصحرائها قدمت لذلك الشعب في صورة كتاب ومدرس ومدرسة وطبيب ومستشفى ؟ .. ألا تتذكر الأجيال القادمة لأحقاب مقبلة ان ليبيا خط احمر ، كرامتها من كرامتهم ؟.. كم هو فرق شاسع بين كتاب وقنبلة تقتل طفلا ، تشرد امرأة وشيخ مسن .. لكن ارادة المستبد أبت إلا ان ترى في الطغيان والقهر والتلذذ بقتل الآخرين سبيل إلى السيطرة واثبات الزعامة ، فكانت الكارثة .. وصور ما تبقى من شواهد بمتحف الصحراء .. تشمت بتاريخه وهرطقاته ورعونته .

كم من ابناءنا ذهبوا ضحية تلك المغامرة المرعبة .. رحمهم الله .. وأعاد الالفة بين الشعبين الشقيقين .. ضحايا الاستبداد .

صفحة من ذلك التاريخ المنسي وقد طوته الأيام والسنين ، وجور الزمن .. إنها الحرب وأي حرب .. الحرب ضد الجار والشقيق الذي أوى أهلنا إبان جبروت المستعمر الأوربي القادم من وراء البحار .

انها المأساة .. الاموات .. المفقودين .. المشردين .. الارامل .. الامهات المكلومات على فقدان ابناءهن وهم في ريعان الشباب .. عزاءنا لهن .. وكل اهلنا بالوطن في مصابنا الجلل .. مصاب كل الاسر الليبية التي اكتوت بلظى تلك الرعونة المرعبة .

مجاهل الصحارى والقفار بشمال تشاد ، رهينة الزمن والتاريخ .. وشاهدا على جريمة ومغامرة وطموح مستبد .. خلال سعات محدودة سقطت اكبر قاعدة عسكرية في وسط افريقيا مجهزة باعتى انواع التحصين والحماية ، قاعدة وادي الدوم .

ربما آن الاوان لكشف خفايا الملف بهمة مختصين ، توثيق شهادات من عاصروا الحدث ، الطبيب والصحفي والقائد العسكري .. صرخة .. والامل أن تجد أذان صاغية . وان تصل إلى صناع القرار .. الصحراء تتكلم وتنطق

بأسرار لعبة الموت والعبث ، ذهب العابثون . وبقيت الشواهد عسى أن تحذر عابثين جدد !

ملاحق

- 1 -

في وقت لاحق ، جمعني حديث وجندي ليبي .. منقذ الرهينة الفرنسية .. التقينا وقد مضى ردحا طويلا من الزمن ولم نلتقي .. جنوبي من زملاء الصبا ، تجاذبنا اطراف الحديث ، نستعيد شريط الذكريات وأين قذفت به الاقدار بعد كل هذه السنين ، تحدث بحسرة المعتبر عن تلك الظروف المعيشية القاسية لأسرته والتي دفعت به للانخراط في صفوف الجيش الليبي كجندي مقاتل عام 1976 م ووطأة الزمن العسكري . وعن امانيه في الارتقاء وإتمام دراسته وقد ذهبت سدى ، تجوب الفراغ لتحط على ارض جرداء ، هواءها دخان وروائح الدماء ، وأوامر وشقاء ، ولهت وعناء .. في ذلك الزمن المعتم .. محطات لا تنسى ، ومرحلة طواها النسيان ، يعتب على اولئك الذين يتصدرون القرار اليوم ، ورواد المشهد الاعلامي ومتنفديه ، كيف لا يجرؤ احدهم للمبادرة بتدوين تلك الحقبة المؤلمة من تاريخ شعبنا ، بالكلمة والصورة ، يقول " نحن لا زلنا على قيد الحياة ، ويمكننا ان نعود ونجوب تلك الوهاد الصحراوية الوعرة التي قاسينا ألام عبورها متربصين ، سلاحنا الحذر ، ففي الجانب المقابل هناك من يترصد قدومنا

، ويزرع الاشواك في طريق تقدمنا جنوبا ، نحو ارض الدولة الجارة والشعب الشقيق .. تشاد .. وحرب تشاد .. لكم تمنى ان يعيد الكرة ليقف بتلك الاماكن من جديد ، يحمل هذه المرة رسالة سلام ، ورغبة في توثيق الوقائع كما عاصرها ، هنا حيث سقط زملائه وارتوى ثرى المكان بدمائهم الزكية .. مدفوعين قسرا بأوامر طاغية اراد لجثثهم ان تشكل جسرا لعبوره نحو المجهول ، او كما يتوهم لتوسيع دائرة سلطانه ، فلم تعد ليبيا تشبع نهمه الى السلطة والتسلط ، اراد ان يلتهم دولة جارة بذرائع صنعها ليوهم البسطاء امثالنا اننا نناضل من اجل قضية ، وان نداء التاريخ قد وهبنا السبق .

ناخ علي هم الدهر ، ليفرج عن صرخة اختزنتها عقود الصمت ، اراد لها ان تدوي هادمة جدران زمن الاستبداد والجوع والإبادة الجماعية لشعوب قهرت واستذلت ثم ما لبثت ان دفنت تحت سطوة الوحشية .. زمن كسوف شمس ليبيا الوطن .. وما اذا كانت شهادة اولئك الجنود تسعف التاريخ ليقف على قدميه .

عام 1978 م .. كانت البداية الفعلية للعمليات العسكرية بالجنوب ، عندها لم تكن القوى العمومية لحامية سبها المكلفة بأمن الجنوب تتعدى 470 مجند ، كلف كسائق ماهر للمركبات الثقيلة بمرافقة القوات المتجهة جنوبا ، صرفت له بطاقة تثبت هويته كأحد افراد جبهة تحرير فرولينا ، تقدمت القوات على محورين ،

المحور الاول بقيادة كوكوني عويدي آمر قوات التبو ، والمحور الثاني بقيادة احمد اصيل قائد قوات المحاميد ، وعند منطقة ازوار نقطة تجمع القوات (التشادية الليبية) ، توجه الغالبية نحو مدينة (فايا) ، والبقية نحو مدينة (فدا) ، القوات الليبية رمزية الى حد ما في ذلك الوقت ، عدد 12 سيارة ضمن المحور المتجه نحو (فادا) بإمرة احد ضباط الاستخبارات الليبية (أ. ح) .. قصفت المدينة بسلاح الجراد وتم تحريرها ، وفي الوقت عينه كانت هناك فرقة اخرى من القوات الليبية وقد تمركزت بوادي مرو ، بقيادة ضابط ليبي يلقب بـ (الصاروخ) ، كانت مهمتنا دعم القوات والإمداد اللوجستي ، وفي وادي مرو استحدث مهبط ترابي لنزول الطائرات .

يستذكر ايضا دوره وزملائه على الارض ، مهمتنا لم تقتصر فقط على نقل العتاد والسلاح للقوات المتقدمة ، بل ونفذنا العديد من الرحلات لنقل التموين وتوزيعها على مواطني قرى ومدن شمال تشاد في محاولة لاستقطابهم .. اسطول نقل صحراوي كنت احد عناصره وخبرائه ، وتحت ما يسمى بالجمعية العسكرية ، نقلنا المواد التموينية وقمنا ببيعها باسعار رمزية – صندوق المكرونه سعره بسبها 3 دينار نبيعه هناك بسعر 4 دينار ، جوال السكر ثمنه 6 دينار نبيعه بسعر 8 الى 9 دينار – ، كان ديدني البيع بمنطقة بير شارده ، ومنطقة وادي مرو .

يصف الاماكن والأحداث .. في وادي مرو .. وكيف يصطف الاهالي في طوابير امامه ، لكل حصة محدودة حسب عدد العائلة .. وادي مرو ، حيث العين الجارية وانسياب الماء بوفرة .. الطبيعة الجبلية ، الساكنة المأهولة العدد وقد اتخذ بعضهم من الجبال سكنا .. ولم يخفي اسفه من تصرفات بعض الزملاء الذين لم يتقيدوا بالأسعار الرمزية ، ليبقى الفائض رهن جيوبهم .

ايضا يستذكر الرحلة من واحة " اوجنقا " التشادية الى واحة " واو " الليبية وقد كلف بنقل عالمة الآثار الفرنسية فرانسواز كلوستر وزوجها بيير كلوستر الرهائن المختطفين لدى زعيم متمردي الشمال حسين حبري منذ عام 1974 م ، وقد افرج عنهم في يناير 1977، بعد قضائهما ألف يوم في الأسر ، وبعد أن تم دفع فدية للخاطفين من قبل القذافي توددا لفرنسا وإيهاما لساستها بدوره الرائد والمحوري بتلك البقاع ، وليفرض نفسه محاورا على أطراف القضية ، بعدما استمال معارض شمالي اخر كان له الدور الاوفر (كوكوني عويدي) .

" لقد فعلت ما بوسعي للتخفيف من فزعهم وارقهم ، ولبعث الطمأنينة في قلوبهم طوال تلك الرحلة الصحراوية الطويلة ، وفي منطقة (واو) كانت الطائرة تنتظرهما ورحلوا على الفور الى طرابلس ".

ولابد انه حضي بشيء من كلمات الثناء التي صرحت بها الباحثة وأسيرة الصحراء عند وصولها إلى طرابلس .. وإن استحوذ القذافي على الثناء بمفرده .. " اريد أن يعرف الليبيون جميعهم بأنني وزوجي في غاية السعادة من الاستقبال الرائع الذي لقيناه في ليبيا " .

آهاته .. زفراته .. تحكي قصص مؤلمة من تاريخ ذلك الزمن المعتم .. وكيف قذف به فيما بعد خارج المؤسسة العسكرية ليتسنى تفريغها من المشكوك بولائهم ، واقتصارها على كتائب امنية تحمي كرسي الطاغية .. يتساءل بحرقة عن حجم تلك التضحيات وكيف ذهبت سدى ، وعن اشلاء وجثث زملاء قبروا في مجاهل الصحراء .. وعن حالة البؤس التي يعيشها اليوم وقد التهمت السنون وتقدم العمر ما لم يكن بالحسبان .

- 2 -

لقاء اخر جمعني واحد الذين عاصروا وتابعوا مجريات معركة " فادا " .. كان من بين المناوبين بغرفة عمليات وادي الدوم .. حدثني بعبرة المختنق عن

مجريات الاحداث بقاعدة وادي الدوم وهم يرقبون انهيار القوات وتقهقرها بموقعة " فادا " المتقدمة .. قال لي فيما قال :

قبل ايام كنت في " فادا " مررت على نقاط التمركز المتقدمة ، وأجريت حوارات مع الضباط هناك ، كان جلهم من المنطقة الشرقية ، واشهد بأنهم يتمتعون بشجاعة كافية ، ومعنويات عالية ، الخطط الدفاعية ، طريقة الانتشار كانت في غاية الدقة والمهارة . عدت الى وادي الدوم ، مركز التحكم والاتصال والسيطرة ، وفي ليلة ليلا ، جاءنا اتصال من امرأة من داخل فادا ، وأبلغتنا بأن هجوم مباغت قد يحدث غدا ومن ثلاث محاور . ابلغنا المعلومة الى القيادة بطرابلس ، وكان الرد ، لا تكترثوا بأوهام العوام .

في صباح اليوم التالي ، حدث ما لم يكن في الحسبان ، توالت الاتصالات ، اغيثونا ، نتعرض لهجوم منذ الفجر ، ومن ثلاث محاور ، اعداد القتلى في تزايد ، فلان وفلان امراء الكتائب كذا وكذا استشهدوا ، الجثث على مرمى البصر . نريد دعم على وجه السرعة .

صدرت الاوامر لطائرتين قاذفة قنابل ، وطائرة هيلوكبتر .. عند عودة الطيارين كنت على المدرج لاستقبالهم ، وبينما نحن في طريقنا الى غرفة العمليات ، حدث هرج ومرج فيما بينهم داخل السيارة ، كل يلقي باللوم على

الاخر ويتهمه بأنه رمى القذائف بعيدا عن ميدان المعركة .. انصت اليهم في صمت ، كان الجو خانقا ، اخترت ارتداء العمامة ونظارات شمسية ، استمع ولا اتفاعل معهم ، كما انهم لم يهتموا بتواجدي ، مجرد سائق يتولى مهمة استقبالهم .

عند غرفة العمليات تحدثوا وكأنهم انجزوا مهمتهم ، عندها تدخلت ، وقلت للآمر .. قبل قليل كانوا يتهاوشون ويلقون اللوم على بعضهم البعض ، هؤلاء اسقطوا القنابل بعيدا عن ميدان المعركة .

في مركز الاتصال يصف لنا قائد طائرة الهيلوكبتر تقدم القوات المهاجمة ، كما انه تمكن من الهبوط لانتشال عدد من الجرحى والناجين ، وحسب افادته ، انه عندما هم بالإقلاع لاحظ اقتراب المهاجمين ، فاختار الاقلاع الانسيابي مع الارض لإثارة اكبر كمية من الغبار ، وتمكن من الاقلاع ، لكن شظية اصابت طرف المروحة ولم تعرقل المهمة .

يصرخ عامل " البدالة " غرفة الاتصال ، صرخته الاخيرة .. ها هم يقتربون مني .. وحدث صوت فرقعة .. انقطعت الاتصالات .. طائرتان اخريان يقودهما ضباط صف خريجي الثانويات الفنية العسكرية يتوجهون لقصف القوات المهاجمة .. ووصول طائرة الهيلوكبتر محملة بمن تم اتقادهم ، منهم امراء كتائب ، قمنا بواجب دفنهم بأرض وادي الدوم . حالة من الذعر ، والانسحاب

العشوائي ، وانقطاع الاتصالات ، وبعد المكان ، وحالة ارتباك ناجمة عن المباغتة ، صورة المشهد المأساوي .. وإصرار الضابط قائد الهيلوكبتر على العودة مرة اخرى للمغامرة وإنقاذ ما يمكن ، لكنه منع ، فقد تدافع اخرون ، كل يريد ان يكون من بين المنقذين ، حقا في ذلك اليوم ووسط التدافع والإصرار .. عرفت كم تمتلك ليبيا من الرجال الشجعان .

ما كان يحدث سقوط " فادا " بهذه البساطة ، لو ان ادارة العمليات اخذت اتصال تلك المرأة بمحمل الجد ، وأكثر من هذا ، ان جماعة الرصد المتقدم ما ان باغتتهم القوات الصديقة منسحبة اثر استشعارهم بالهجوم ، انضموا اليهم وانسحبوا سويا دون ان يبلغ أي منهم مركز العمليات .. كانت القوات الصديقة متمركزة بعيدا على الجانب الاخر بمسافة تقدر بـ 15 كم . لكنهم وقد اختاروا الانسحاب قبل بدء الهجوم ، والتمركز الى الخلف ، ثم مواصلة الانسحاب نحو وادي الدوم ، والتحقت بهم اسراب المنسحبين من ميدان المعركة بفادا كونهم ادري بالمسالك من الليبيين .. وفي اثناء سيرهم تعرضوا هم الاخرون لهجوم مباغت قصم الرتل الطويل الى قسمين ، الجزء الشمالي نجا وواصل سيره ، والجنوبي او ذيل الرتل وقع في المصيدة بين اسرى وقتلى .. وكان من بينهم عدد كبير من الليبيين ايضا .

عند المساء ، عاد الاتصال ، المتحدث جندي جهاز اللاسلكي نفسه .. كانت مفاجأة لنا ، توقعنا انه هو الاخر لقي حتفه ، وها هو يبلغنا انه في الطريق الينا في وادي الدوم ، رفقة القوات الصديقة التي لم تتضرر كثيرا من الهجوم ، استمر التواصل الى ان ابلغنا انه على مشارف وادي الدوم ، انتابنا توجس ، قد يكون اسيرا ويتحدث تحت وطأة فوهات البنادق . طلبنا منه ان يبلغ القوات بأن لا تدخل وادي الدوم ، وان تبقى خارج المجال ، وان يأتي لوحده ، وما ان وصل ، اكد لنا بان القوات المرافقة ، قوات صديقة ، وفلول منسحبة من فادا .. عندها سمحنا لهم بالدخول .. وبدأت اسراب القوات المنسحبة في الوصول تباعا طوال المساء ، وكم هالني المشهد .. السيارة التيوتا على متنها اكثر من عشرون راكبا ، عيون مشدوهة ، واجفان قتلها التعب والهلع وفقد الرفاق .. انهار من دموع الفراق .. فراق الاحبة والأصدقاء الاصدقاء .. ووعد ووعيد .. وضابط صغير يصرخ انا على استعداد الان للعودة .. وقيادة المعركة من جديد .. وفي طرابلس خيم الحزن وازداد الحنق .. وسؤال ما العمل الان ؟ ولا اجابة .

الان ترى كم يمكن للسيارة التيوتا ان تحمل من اعداد البشر ، ومع ذلك ، بعضها جلب جثث لضحايا . وثلة من افراد الصاعقة ، غامروا لاستطلاع الواقع على الارض .. لتأتي الاخبار المفزعة بأعداد الجثث الملقاة في العراء ، وكما العادة .. القوات التشادية التي تخشى الطيران .. نفذت عمليتها بسرعة مذهلة ..

دمرت كل شيء وانسحبت الى حيث لا يعرف لها اثر .. كم هالني حديث الطبيب الذي ترك خيمة العيادة وبها عدد من الجرحى .. بغرض احضار اخرين .. وعندما عاد .. وجد الجميع مذبوحا بالسكين .



صورة لمدرج مطار قاعدة السارة



ام العبيد .. مدخل مقر معسكر اللواء الاسمر .. نقش عبارة القوات الصديقة لا تزال باقية على الجدار .



جانب من اطلال القلعة الايطالية حيث مقر اللواء الاسمر حولها



جانب من سور معسكر تدريب القوات الصديقة .. ام العبيد



اطلال القلعة الايطالية وسور معسكر اللواء يلتف حولها .. كل شيء تحول الى اطلال وبقايا خراب



مدخل مقر اللواء الاسمر



ساحة العلم والجمع والتدريب بمقر اللواء الاسمر وفي الخلف عنابر الجنود